محكم

أهمية التفكير النقدي
والأسس المرجعية لفكر النهضة

إبراهيم رضا

باحث مغربي

قسم الدراسات الدينية

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث

All rights reserved

Mominoun Without Borders

يقول ابن مسكويه: «إنَّ العقول في جميع الأمم هي واحدة في جوهرها؛ فهي لا تختلف بعضها عن بعض بالنسبة إلى اختلاف البلدان، وهي لا تتغير بالنسبة إلى تغيُّر الزمان، وهي لا تشيخ ولا توهن»

ويقول ديكارت في القاعدة العاشرة: «لكي يكتسب العقل الحصافة، يجب تدريبه على البحث عما يجده»

descartes: œuvres et lettres

مدخل عام:

لا يمكن تصور فكر نهضوي أو تجديدي دون أن يتحلى ذلك الفكر بقدر مهم من النقد، ذلك لأن كل نهضة أو تجديد، لا بد أن يحقق قدرا من التجاوز والانتقال من وضع جامد وفكر راكد مغلق إلى وضع أكثر حركية، وفكر أكثر حرية وانفلاتا من قيود الرتابة والتقليد.

وإذا تأملنا مسار كل نهضة في الشرق أو الغرب، وجدنا أنها مرت في بدايتها الأولى بهذا الانتقال والتجاوز، بل إننا إذا تأملنا البدايات الأولى لكل الحضارات الإنسانية، والرسالات السماوية، والمشاريع الثقافية الكبرى التي شهدتها البشرية منذ ميلادها السحيق وجدنا أن لحظة ميلادها الأول، إنما تحقق بفضل تلك الطفرة في الفكر والفهم وفي الوسائل، في التصور والسلوك.

وإذا تأملنا بعمق كل تلك اللحظات التي تغير فيها مسار التاريخ البشري، وتحول فيها واقع مجتمعات عديدة نحو الأفضل والأقوم، وجدنا أن سر تلك التحليلات جميعها يبدأ بقوة وسداد وإلهام بعض العقول لخلق وإبداع شروط التجاوز والانتقال نحو آفاق معرفية وحضارية أكثر رحابة، واوسع امتدادا وأكثر ثراء وغنى إنسانيا وماديا.

ولعل أهم تلك الشروط في نظري هو القدرة على تأسيس فكر نقدي تحرري تجاوزي، ينتقل بالذات الفردية والجماعية من واقع منغلق ومتحجر ومتخلف إلى واقع أكثر انفتاحا ووضوحا وازدهارا.

وأهمية هذا اللقاء[1] تتجلى في نظري في كونه جاء في سياق تفعيل فكر نقدي، ومراجعة بعض المفاهيم والقضايا الفكرية التي بحاجة إلى إعادة نظر وتجديد، وقد تميزت المواضيع التي ستطرح فيه بجدية وتطلع

[1]- أقصد اللقاء الذي نظمته مؤسسة مؤمنون بلا حدود بالتعاون مع كلية الآداب ببني ملال تحت عنوان: **سؤال الأسس المرجعية والمنهجية لتجديد الفكر الإسلامي**. بتاريخ 21/20 أبريل 2013 مدينة بني ملال.

للتجديد والتطوير. فالتفكير النقدي ضرورة وحاجة ثقافية وحضارية نابعة من متطلبات التغيير وإعادة تشكيل وعي الأمة وفقهها لنفسها وللعالم من حولها، إنها تتعلق بإعادة تجلية الأسس المرجعية وصياغة البناء المعرفي الذي انبنى عليه خطابنا، وأصبح يشكّل وعينا، وشكّل تاريخيًا لا وعينا الذاتي، إنه إذًا ما نقدّم به ذاتنا إلى العالم، والصورة التي نعكس به تصوّرنا ورؤيتنا للعالم، ومن هنا يصبح التفكير النقدي الذي ننشده جوابا لتحديات اللحظة المصيرية التي تحياها الأمة، ولا تجدي معها المراوغة البلاغية أو مجرد القول إن الإسلام هو الحل لكل لمشاكلنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وقد أصبح التفكير في الإسلام والتخطيط له شأنا "متعولما"، وزادت مدارسة قضاياه وإشكالاته تتجاوز مركزه الجغرافي التقليدي منذ "تداعيات أحداث الحادي عشر من سبتمبر مثلا عولمة الاهتمام والاشتغال بقضايا الإسلام والمسلمين". والساحة الفكرية والثقافية بحاجة إلى مثل هذه اللقاءات العلمية النوعية وما يسفر عنها من كتابات جادة وجريئة في نقد الواقع والأفكار التي تكبح نهوضنا وتقيد انطلاقتنا، وتعطل فاعلية عقولنا، وتوكلنا إلى السلبية والقشرية والانغلاق، كما تأتي أهمية هذا اللقاء كذلك من كونه يستهدف نوعية خاصة من الطلبة الباحثين والجادين الذين ينجزون بحوثهم في هذا المجال المعرفي.[2]

وهذا يقودنا إلى التساؤل حول أهمية ومكانة التفكير عموما وبيان ماهية التفكير النقدي؟

وما هي أهم سماته وخصائصه؟

وإلى أي حد تفاعل فكر النهضة ورواد الفكر الاسلامي الحديث مع هذا النوع من التفكير؟

ما علاقة التفكير النقدي بالأسس المرجعية التي من المفترض فيها أنها مرجعية مسلم بمكوناتها ولا تقبل النقد وتقوم على الاقتناع بثبات منطلقاتها وصحة مسلماتها؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات المختلفة أقدم هذا العرض المتواضع:

1- مقدمات منهجية تأسيسية:

المقدمة الأولى: يشهد العالم اليوم تغيرات متسارعة على كافة المستويات الاقتصادية والسياسية والمعرفية؛ وهذا ما جعل تنمية مهارات التفكير العليا هدفاً استراتيجيا للتعليم في الدول المتقدمة؛ مع ما يتطلبه ذلك من وضع أفضل الطرق وأقوم المناهج لإكساب المتعلمين ما يمكنهم من تنمية مهاراتهم في التفكير فهما

[2]- كثيرا ما نلاحظ أن طلبتنا الباحثين يعانون في مرحلة البحث من افتقاد هذا النوع من التفكير النقدي، حيث نجدهم يقفون عند حدود الوصف للمشكلات التي يبحثونها ويكتفون بنقل التعاريف التي وضعها العلماء لها مع جمع أقوالهم في ذلك، دون أن يلزموا أنفسهم غالبا بالتعمق فيها وتحليلها ومناقشتها بشكل كاف، والاكتفاء باستخدام التعميمات السطحية و إطلاق أحكام القيمة التي لا تستند إلى المحاججة ومناقشة أدلة الآخرين والتعلم منهم حينما يظهر أنهم على صواب، ومرد هذا في الغالب هو-غياب التأمل وعدم إعادة النظر في القضايا المعرفية التي يتناولونها وإجمالا "التهيب من إعمال النقد.

وتوظيفا وتطبيقا، وعدم الاقتصار على المهارات الأساسية في الحفظ والتذكر والاستيعاب؛ وجعل الرهان ينصرف إلى نوعية الشخصية التي يبنيها المجتمع في المجال التعليمي التربوي من خلال الأسرة، ومن خلال مؤسساته التربوية والتعليمية، حتى يتمكن الجيل القادم من استيعاب متطلبات الحضور الفعال في مجتمعات المعرفة، والمساهمة الإيجابية في بناء المجتمع ونهضته.

وهذا ما يفسر كثرة الدراسات واللقاءات العلمية والإصدارات الكثيرة التي تتمحور اهتماماتها حول مواضيع المنهج، والمنهجية، وطرائق توظيف مهارات التفكير البناء بكفاءة وفاعلية، والبحث في قضاياه المختلفة التي تأتي في مقدمتها تعلم أفضل سبل اكتساب مهارات التفكير النقدي والتفكير الإبداعي لحل مختلف المشكلات التي تعترض الإنسان في العصر الحاضر.

المقدمة الثانية: ضرورة استحضار الباحث لقضايا الفكر العربي الاسلامي الحديث ما يشهد ه عالمنا المعاصر من تحولات ـ فرضتها تحديات العولمة والحداثة وما بعد الحداثة ـ جعلت البشرية تنتقل في العقدين الأخيرين من العصر الصناعي إلى موجة ثالثة ركيزتها المعلومة؛ وما تبعها من ثورة في الاتصالات وتبادل للمعلومات التي أصبحت رهان الاقتصاد، ومدار السلطة، ومقوم التنمية، مما حول العالم إلى قرية كونية صغيرة، يسعى فيها القوي إلى (عولمة) معاييره، وفرض قيمه وسلعه، وفق ما يخدم مصالحه، ويستجيب لخططه.

وقد صاحب هذا بروز مفاهيم جديدة، صارت تداعياتها الفكرية والفلسفية والسياسية والاقتصادية وغيرها تؤثر على أوضاع العالم العربي والإسلامي في مختلف مناحي الحياة مثلا: قضايا الديمقراطية، وقضايا حقوق الإنسان، حقوق المرأة، الحرية بمختلف تجلياتها: حرية المعتقد، حرية الجسد، حرية الاختيارات الجنسية.... إلخ

وكل توجه ثقافي تغييري في ظل هذه الظرف في حاجة إلى التوقف بين الفينة والأخرى للمراجعة والتقويم وإعادة النظر وتجديد أساليب التفكير وفق ما يستجد من التطورات والتحديات؛ وإلا فإنه سيكون محكوما عليه بالتراجع والانكماش، بل التلاشي و الانمحاء.

المقدمة الثالثة: التفكير النقدي ضروري لتجاوز التناقضات الثنائية: غالبا ما تقود التحولات التاريخية والحضارية الكبرى التي تجتازها الأمم والمجتمعات في فترات حاسمة من تاريخها إلى انقسام تلك المجتمعات إلى نمطين ثقافيين متقابلين؛ أحدهما يندفع نحو الجديد البالغ الجاذبية والقوة، والآخر تقليدي، يتمسك بأطراف الماضي، ويحاول جاهدا حماية المصالح التي راكمها في ذلك الماضي في غفلة عن المحاسبة والرقابة، ويحاول جاهدا أن يثبت قدرته على البقاء. ثم بعد ذلك يبدأ نمط ثالث في الظهور يحاول أن يتجاوز ذلك التمحور حول القطبين، ويطرح الكثير من التساؤلات والاستفسارات، ويواجه التقلبات المختلفة بالمزيد من أسئلة الشك والنقد والتقويم. ولا تقاطع في الفكر بين الأزمنة الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل إلا في الأذهان

والتصورات، حيث يغدو التاريخ هنا متمسكًا بالواقع الحاضر جاذبًا إياه إليه ومنفتحا في الآن نفسه على متطلبات المستقبل.

وهكذا يدخل الجديد والقديم في حوار جدلي؛ الجديد يخرج من القديم ولا ينفصل عنه كليا إذ لا وجود لقطيعة كلية في مجال الفكر والثقافة، وإن ظهر بعض ذلك في الظاهر. والقديم يبقى دائما كامنا في الجديد ولو بصورة جنينية. ويستبطن الفكر الحي دائما الماضي دون أن يغفل عن مواكبة الواقع واستشراف المستقبل.

وهذا التوجه الثالث، يسعى لتجاوز سلبيات التيارين ويعمل على بناء موقف مستقل، معتمدا في ذلك رؤية نقدية لتجاوز الرؤية الأحادية التي يحبس هذا الاتجاه أو ذاك نفسه فيها. وقد ظهر هذا الاتجاه النقدي في الفكر الإسلامي الحديث منذ بداية عصر النهضة، لكنه شهد تطورا مهما بعد منتصف القرن الماضي تقريبا، حينما أعلن مفكرون بأنهم لا يرون أي مبرر لرفض أو قبول "القيم والثقافة الغربية"، أو رفض أو قبول "التراث العربي الإسلامي" جملة وتفصيلا. وأن هذا الموقف لا يعني بالضرورة رفض الأسس المرجعية الحضارية الإسلامية التي يرون ضرورة الانطلاق منها لتطوير رؤيتهم النقدية للحداثة الغربية والتفاعل مع منجزاتها من دون الانغلاق أو الانفتاح الكلي عليها. وهذا ما يمكن تسميته بالانفتاح النقدي التفاعلي الذي يسعى إلى الأخذ بالأصالة والمعاصرة معا، على عكس الانفتاح السلبي أو الرفض الشامل الذي يتأرجح بينهما خطاب التوجهين السابقين.

المقدمة الرابعة: عرف التفكير النقدي في التاريخ الانساني الحديث منعطفا معرفيا ومنهجيا حاسما حين تحول من خلال المشروع الضخم (نقد العقل المحض) للفيلسوف الألماني إيمانويل كانط 1724-1804/م، إلى منظومة فلسفية نقدية، حولت النقد في معناه وفي وظيفته التقليدية في علاقته بالفلسفة المتمثلة في نقض المسائل والمقولات والمذاهب، إلى مواجهة نقدية للعقل ذاته، وكشف كيف ينتج العقل مقولاته المختلفة، وكيف يبني مسائله وتحليل ذلك من خلال فحص الشروط القبلية التي تجعل تلك المقولات ممكنة. وهذا ما عبر عنه كانط بنفسه" لا أقصد بذلك نقد الكتب والمذاهب، بل نقد سلطة العقل عموما".[3]

وبهذا أصبح مفهوم (نقد العقل) مرتبطا في منطلقه وامتداده إلى هذا الإنجاز (النقد الكانطي) الذي استطاع أن يحدث انعطافا فلسفيا واضحا في تاريخ الفكر الأوربي الحديث، حيث بلور فيه منهجية صارمة في عملية النقد تحول معها النقد من مجرد نقد المقولات والأفكار، (الكتب والمذاهب) إلى نقد (العقل نفسه) واختبار الأصول والمسلمات والبديهيات المنتجة لتلك لمقولات؛ أي نتخطى نقد المعارف إلى نقد الآلة المنتجة لتلك المقولات والمسائل والتي بها نعرف، وذلك من خلال فحص الشروط القبلية التي تجعل تلك المقولات ممكنة. وقد وصف هذا الإنجاز "الكانطي" بأنه عمل غير مسبوق يمتاز بالجدّة والأصالة، وتتجلى الأصالة عنده

[3]- Emmanuel kant, Critique de Laraison pure, op cit, p 65

في النقلة التي أحدثها في مفهومه للنقد نفسه، وفي ممارسته له بطريقة جديدة ومغايرة تهدف إلى تحليل العقل ذاته[4]. **وبعد ذلك تبلورت معالم "النظرية النقدية المتقابلة مع النظرية التقليدية"**.[5]

كما، ظهرت بعد ذلك تباعا دراسات غربية نقدية همت جميع الحقول المعرفية تقريبا، ومنها من توجه لنقد مسار الحضارة الغربية، وكان ماركوز، بحديثه عن "تنميط" الحضارة الغربية والإنسان ذي البعد الواحد، يبين أن ثمة خللاً بنيوياً في صميم الحضارة الغربية يتجاوز التقسيم التقليدى المتبع الذى يقسمها إلى حضارتين: واحدة اشتراكية والأخرى رأسمالية. وأصبحت أعمال مدرسة فرانكفورت وغيرها من الكتابات النقدية للمعرفة والواقع بكل تجلياتهما متداولة بين عدد كبير من المفكرين العرب الذين استفادوا منها لنقد قصور الذات من جهة، ونقد تداعيات الحداثة الغربية من جهة ثانية، فبرزت مشاريع فكرية عديدة تحت مسمى (نقد العقلانية) بفروعها الثلاثة: **نقد العقل الإسلامي** لمحمد أركون، و**نقد العقل العربي** لمحمد عابد الجابري، و**نقد العقل الغربي** لمطاع صفدي، كما برزت كتابات أخرى حول قضايا "النقد الذاتي" و"نقد التراث" أو "إعادة تشكيل العقل الإسلامي و"مشكلة الأفكار في العالم الاسلامي" وغيرها من العناوين التي تستبطن في غالبيتها روح التفكير النقدي الذي تبلور مع الإضافات المهمة التي عرفها التفكير الإنساني في العصور الأخيرة."

وكان للمفكرين الإسلاميين والعرب رؤيتهم وتوجههم النقدي المتميز الذى يختلف عن أشكال النقد التي اعتمدتها المدارس الغربية، منها مثلا لفكر الحداثة وما بعد الحداثة، إذ إنهم يدركون مدى ارتباط منظومة الحداثة الغربية بالإمبريالية الغربية ورؤيتها للعالم من منطلق الإحساس بمركزيتها المتعالية، ويدركون صعوبة فصل الواحد عن الآخر. كما أن نقدهم هذا يتسم بأنه متفائل، ويطرح حلولاً أكثر انسانية وانفتاحا، على عكس النقد الغربى للحداثة الذي يبدو في غالبه متشائما وعدميا.[6]

2– العرض:

منذ أواخر القرن التاسع عشر مرورا بالقرن العشرين إلى اليوم، يستخلص المتتبع لمجمل المشاريع والتجارب الفكرية النهضوية التي رفع لواءها أقطاب الحركة الاصلاحية والتجديد أن مجمل تلك التجارب قد

---

[4]- انظر: مقدمة موسى وهبة لكتاب **"نقد العقل المحض"**. ومحمود فهمي زيدان، **"كانط وفلسفته النظرية"**، ص41. وعبد الله الفلاحي، **"نقد العقل بين الغزالي وكانط"**، ص 200

[5]- ظهر مصطلح النظرية النقدية بشكل أكثر نضوجا عندما نشر "هوركهايمر (Horkheimer)" عام 1937 دراسة بهذا العنوان: «النظرية التقليدية والنظرية النقدية» ميز فيه هوركهايمر تمييزا عميقا وواضحا بين نموذجين أساسيين لاكتساب المعرفة، النموذج الأول هو النظرية التقليدية الشكل الذي ارتبط بالمناهج الوضعية ومحاولة تقليد مناهج العلوم الطبيعية. أما النظرية النقدية، فهي على العكس من ذلك تؤكد على الصبغة النقدية للعقل وتجعل الإنسان صانعا لظروفه التاريخية بأسلوب لا يخلو من النقد المستمر.

[6]- انظر في هذا الصدد كتابات عدد كبير من المفكرين: مالك بن نبي، منير شفيق، أغلب كتابات عبد الوهاب المسيري ومؤلفات طه عبد الرحمان، خاصة كتابه: **روح الحداثة: المدخل الي تأسيس الحداثة الإسلامية**، والصادر عن المركز الثقافي العربي بيروت/الدار البيضاء (الطبعة الأولى 2006 - 287 صفحة من الحجم الكبير)

شابها كثير من أوجه الخلل والقصور على المستوى التنظيري الفكري، ونتجت عنها قضايا وإشكالات فكرية عديدة انكب على دراستها رواد الفكر العربي الإسلامي إلى اليوم.

ولعل أهم تلكم الإشكالات، في نظري، هو عدم نضج ما يمكن تسميته بالتفكير النقدي، سواء لدى أقطاب تلك المشاريع، أو أولئك اللذين انتدبوا أنفسهم فيما بعد لدراسة وتتبع منجزات تلك المشاريع، في جوانبها المختلفة: المعرفية والسياسية. فعلى الرغم من كون كل تجديد أو إصلاح يتطلب قدرا كبيرا من الوضوح الفكري الذي يتأسس بدوره على مستوى مهم من التفكير النقدي الإبداعي؛ إلا أن المستقرئ لخطابات مشاريع النهوض وحركات الإصلاح، ولعديد من تجارب التغيير في عالم المسلمين، يلاحظ ضمور ما يمكن تسميته بالرؤية النقدية الفاحصة.

وسؤال النقد يرتبط بسؤال النهضة والتجديد والإصلاح وغيرها من الأسئلة التي ما فتئ الخطاب العربي والإسلامي يطرحها منذ قرنين أو أكثر، ذلك لأن أول متطلبات كل نهضة أو تجديد أو إصلاح يتمثل في القدرة على التجاوز والانتقال من واقع قائم إلى واقع مأمول ومستقبل منشود، وهذا الانتقال لا يمكن أن يحدث دون العبور عبر غربال النقد ومصنفاته. لهذا يمكن القول إن التفكير النقدي لم يعد بالنسبة لنا اليوم مجرد مسألة ثقافية نظرية أو مجرد ترف فكري لا علاقة له بواقع الناس وأحوالهم، بل أصبح لنا مسألةً وجودية، لأن كل تنمية أو إقلاع اقتصادي أو تطور اجتماعي، يبدأ أولا بتنمية ثقافية بانية، والتفكير النقدي منطلقها، إنه طريق الكشف عن المستقبل المنشود ووسيلة تجاوز واقع متكلس عصي عن التغيير والانتقال إلى الأفضل. فإذا لم يتمكن الخطاب العربي الإسلامي من جلو الصدى عن أساليبه العتيقة ومضامينه التي تكلّست واهترأت؛ فإنه لن يستطيع أن يُسهم في صنع العالم الذي ننشده ثقافيًا وسياسيا وحضاريا، وإذا لم يتمكن فكرنا وخطابنا من استيعاب مختلف التحولات السريعة التي تعرفها المعرفة الإنسانية، فإنه سيبقى يجترُّ مقولاته التي ما فتئ يكررها ويُعيدها منذ عقود. والتفكير النقدي بهذا الاعتبار ينبع من حاجتنا لتجديد ذاتنا، ولتغيير واقعنا وليس من حاجة وإملاءات الآخرين التي تخدم مصالحهم، وتستجيب لمطامحهم.

لهذا، فإن أهم ما نحتاجه اليوم في نظرتنا للفكر العربي الإسلامي المعاصر هو أن تكون لنا نظرة فاحصة وناقدة، خاصة وأن العوامل التي تفرض علينا هذا في وقتنا الراهن عوامل كثيرة، منها عوامل داخلية وخارجية:

فالعوامل الداخلية: تتجلى في نظري في استحالة حدوث أي نهوضٌ في الفكر، أو تجديد في مناهجه، أو تطوير في حركته، من غير أن يترافق ذلك مع مراجعات نقدية في فكر المسلمين وخطاباتهم الثقافية لإزالة ما علق بها من جمود ورواسب بالية وسلبية، وعوائق منهجية، ومن قواعد العمران وسنن الحضارات أن الوضوح الفكري هو العنصر الجوهري لنهضة واقع أية أمة، كما

يعتبر نقطة الانطلاق الأساسية التي يبدأ منها كل مشروع أو تصور للنهوض والإصلاح. من هنا استقطب موضوع تجديد الفكر وإعادة تشكيل العقل الكثير من المفكرين الذين أرادوا أن يسهموا في نهضة الأمة وتحقيق ريادتها الحضارية بين الأمم.

أما العوامل الخارجية: فيفرضها ما يشهد ه عالمنا المعاصر من ثورة في الاتصالات وتبادل للمعلومات، جعلت لعالم يبدو كقرية كونية صغيرة، يسعى فيها القوي إلى (عولمة) معاييره، وفرض قيمه وسلعه، وفق ما يخدم مصالحه ويستجيب لخططه، وهذا ما جعل مكانة المجتمعات البشرية تتحدد وتقدر بما تملكه من صنوف المعرفة؛ كما جعلت من يمتلك المعرفة، ويحتكر إمكانات توظيفها وتوجيهها يمتلك السلطة على العالم والقدرة على توجيهه وكل توجه نهضوي في ظل هذه الظرف في حاجة إلى التوقف بين الفينة والأخرى لمراجعة برامجه وإعادة تقويم خططه وتجديد أساليب عمله وفق ما يستجد من التطورات والتحديات وإلا فإنه سيكون محكوما عليه بالتراجع والانكماش، بل بالتلاشي والانمحاء.

أمام هذا لا بد للفكر والوعي العربي والإسلامي، أن يكون في مستوى الاستجابة لهذه التحديات الجديدة، وما قد ينتج عنها من آثار ومؤثرات على بِنْيَة وعمق سلوك الإنسان في أي مكان كان في ظل الانكماش المكاني والزماني. لهذا دعا أحد المفكرين إلى ضرورة أن نعيش ما سماه حالة طوارئ، لنتخلص من كل هذا السكون والجمود المميت الذي يطبق على كثير من أمور الثقافة الإسلامية. لهذا، فإن الأخذ بأسباب النهوض والتخطيط له وابتكار طرائق جديدة له، لا يغدو اليوم خياراً من خيارات الأمة فحسب، وإنما هو ضرورة وواجب، بل هو سر نجاحها وتقدمها.

والعالم اليوم لم يعد يُتوقف كثيرًا عند ما نقوله نحن عن أنفسنا، ترضية لها، ثم نقف عند حدود القول، فحالنا السياسي وتخلفنا الاقتصادي وإرثنا الاجتماعي يكشف عن حال خطابنا ويعبّر عنه بامتياز، وهو ما يعني أن الارتقاء بأساليب التفكير وتعليم مهاراته هو في أحد جوانبه هو عملية تربوية وتعليمية وتنموية شاملة، لأنه يقوم على التربية على اكتساب مهارات آلية النقد الثقافي والتوجه إلى نقد التقليد الثقافي والاجتماعي، وتجاوز المواطن التي تصبح فيها الثقافة آلية لتكريس العوامل الكابحة للنهضة والتقدم والمكرسة للمحافظة في جانبها السلبي.

ومن هنا، لابد من مبادرات معرفية تحلل نظم التفكير في مجتمعاتنا، حتى يمكننا معرفة أين يكمن الخلل والقصور؟ وتكشف لنا أبرز معوقات نظام التفكير عندنا؟

فكيف تتحقق عملية التفكير بداية؟

3– التفكير عملية مركبة لها دوافع عدة وتجليات متعددة:

التفكير عموما عبارة عن سلسلة من النشاطات العقلية التي يقوم بها الدماغ عندما يتعرض لمثير يتم استقباله عن طريق واحدة أو أكثر من الحواس الخمس، وهو مفهوم مجرد ينطوي على نشاطات غير مرئية وغير ملموسة، وما نلاحظه، أو نلمسه هو في الواقع نتائج فعل التفكير، سواء أكانت بصورة مكتوبة، أم منطوقة، أو حركية، أم مرئية. وعلى الرغم من كون عملية التفكير عملية مألوفة وتبدو في الظاهر عملية تلقائية وبسيطة وسريعة، يمارسها جل الناس بدراجات متفاوتة، وبطرائق مختلفة، إلا أن جوهر وحقيقة هذه العملية يصعب تفسيرها أو الإحاطة بكل جوانبها، لهذا يظل مفهوم التفكير من أكثر المفاهيم غموضا وتعقيدا، وأشدها استعصاء على الفهم والتفسير نظرا لتعدد مراحلها وكثرة العوامل المؤثرة فيها والمتأثرة بها، وكذا اختلاف الدوافع والمثيرات التي توجهها مع تباين الموانع والعقبات التي تصدها عن تحقيق مرادها. والتفكير بمعناه الواسع عملية بحث عن معنى في الموقف أو الخبرة، وقد يكون هذا المعنى غامضا حينا وظاهرا حينا آخر، ويتطلب التوصل إليه تأملا وإمعانا للنظر في مكونات الموقف أو الخبرة التي يمر بها الفرد. والقدرة على التفكير هي أساس القدرة على التعلم، واكتساب الخبرات، وحل المشكلات، واتخاذ القرارات الملائمة لتحقيق التوافق النفسي والاجتماعي، وتحقيق النجاح المهني والاقتصادي، وإحراز التقدم على مستوى المجتمع الإنساني، بل إنّ هذه القدرة هي أساس تكريم الإنسان.

والناس كثيرا ما يهتمون بالأفكار ومناقشة الآراء والنظريات وينسون عملية التفكير في حد ذاتها، كيف تحدث؟ وما هي العوامل المتحكمة فيها والعوامل المحددة لوجهاتها ؟وما هي أساليب اشتغال العقل ومهاراته؟ كأن التفكير الذي يتساءل حول جميع الأشياء من حوله يجهل جوهره ويتناسى ذاته أو يتناسى التساؤل حول طريقة اشتغاله؛ و لا يملك القدرة على اكتشاف كثير من عناصر حركته وفهم كل ما يقوم به من عمليات. وكأن الناس في ذلك يهتمون بالثمرة وينسون الشجرة التي أنبتتها، هذا مع العلم أن الانتباه لمهارات التفكير وبيان أساليب اشتغاله المختلفة لا يقل أهمية عن تتبع ما تنتجه من أراء و أفكار ونماذج معرفية وفلسفية. "وكما يقول جان فرنان: "فعندما نسأل العقل عن أصوله، فإننا نقحمه في التاريخ ونعامله على أنه ظاهرة بشرية، ومن ثمَّ على أنه نسبي خاضع لشروط تاريخية معينة منقلب بتقلب الشروط".[7]

4– الوضوح الفكري أساس كل نهضة راشدة:

حتى يتحقق الوضوح الفكري المنشود لبناء أي مشروع حضاري أو لتأسيس منظومة معرفية متماسكة، لا بد من الفحص والتمحيص الدقيق للأفكار وتقييم الحلول المقدمة لتجاوز مختلف التحديات. ذلك لأن الأفكار،

[7]- جان بيير فرنان، **العقل بين الأمس واليوم**، ضمن كتاب التفكير الفلسفي، إعداد وترجمة محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، ص 19

مثل البذور لا تتفتق أو تنمو وتنضج ثمارها إلا عندما تتعرض لأشعة الشمس، وتموت وتُخنق حين تُحاصر بالظلمة وتُحرم من أشعة الشمس والفكر إذا أبعد عن أنوار العقل التي تتعهده بالتقويم والمراجعة والنقد، يفقد وهجه، ويفقد فعاليته، وينعدم تأثيره في محيط حامله وواقعه؛ يفقد غاياته ومقاصده ويتجرد من تسميته الحقيقية ويتحول إلى رسوم بالية ومحفوظات جامدة، ولا يستطيع أن يربط بين أسسه المرجعية ومنطلقاته التصورية وغاياته العملية، يصبح خارج دائرة الزمن، حيث يتحصن في داخله رافضا الخروج من دائرة العادة والألفة والوثوقية المزيفة التي توهمه بأنه وحده يمسك الحقيقة كلها إلى درجة اعتقاده بأنه يمثل الحقيقة أو الفضيلة نفسها ولا يرى في غيره سوى الخطأ المحض.[8] حينئذ يصبح التحجر والجمود من أساسات بناء هذا النوع من نمط التفكير المنغلق على عوالمه الخاصة، ويصبح العناد المطلق جوهر وجوده ومحدد رؤيته لنفسه وللعالم من حوله. وبهذا تنشأ النزاعات الفارغة التي تدخل المجتمع في مزيد من أشكال التخلف، وتنشأ عقول لا تحسن مهارات النقد البناء فتلجأ على كل ما من شأنه تشخيص المشكلات أو التكفير وإلغاء الآخر، وممارسة العنف في غير مكانه.

والتعصب عادة ما يتخذ شكل التحمس الزائد للرأي الذي يقول به الشخص نفسه، مما يجعله يتضمن في واقع الأمر بعدا آخر: فهو يمثل في الوقت نفسه موقفا من الذات وموقفا معينا من الآخرين، إذ حين يكون المرء متعصبا لا يكتفي بأن ينطوي على ذاتيه وينسب إليها كل الفضائل، بل يعمل أيضا على استبعاد الفضائل كلها عن الآخرين وينكرها عليهم. وبهذا يتحول التعصب إلى حاجز نفسي وعقلي يحول دون الاهتداء إلى معرفة الذات على حقيقتها، كما يحول دون اكتشاف مزايا الآخرين. إن هذا الفكر يعجز عن فصل الأعراض عن أصل وجوهر الأزمة وأسبابها العميقة فيعادل بينهما، ومن هنا نجده يعالج الأمور السطحية ولا يدخل في عمق المشكلات الكبرى التي تفرخ التخلف وتمظهراته سواء في السلوك، أو في الذهنية، فيغلب عليه التسطيح في تناول قضايا العصر وأحداث اليوم، دون اللجوء إلى التحليل والتأمل والبحث في العمق. والفكر الذي لا ينمو ولا يتطور يتعفن؛ تماما كالبذور حين لا تمتد إليها اشعة الشمس؛ بمعنى أن على كل فكر ينشد الحياة والديمومة، لا بد له أن يتطور، وهذا لا يتأتى غالبا إلا بالنقد والمراجعة الدائمة، والفكر الحر لا يقبل السكون.. ويسعى باستمرار إلى التحرّر من قيود الكسل والخوف والوصاية.

وهكذا يعدّ اعتماد التفكير النّقدي علامة على انخراط معتنقيه في التفاعل مع مشكلات عصرهم وعلى امتلاكهم لعقل ناضج.

[8]- يرى الدكتورُ زكي نجيب محمود أن علةَ العلل في حالةِ الجمود الفكري العربي المعاصر تتمثل في الغموض الفكري وعدم تحديد المفهومات التي تدور حولها موجهاتُ الحياة العلمية كمفهومِ الديمقراطية، والاشتراكية، والرأسمالية، وما إلى ذلك من المحاور في حياة الفكر. انظر: **دور اللغة في تجديد الفكر العربي** عند زكي نجيب محمود، د/ ميرفت عزت بالي، ضمن كتاب "زكي نجيب محمود مفكرًا عربيًّا ورائدًا للاتجاه العلمي التنويري"، تصدير وإشراف د/ عاطف العراقي، دار الوفاء، الإسكندرية، سنة 2001، ص 193

5– الفكر هو المرآة التي تعكس الحالة العامة للأمة التي ينتسب إليها:

قد تكون المرآة مستوية، فتعطي انطباعا سليما عن الشيء الذي تعكسه، وقد تكون محدبة أو مقعرة أو مكسرة، فتعطي أشكالا منحرفة ومشوهة وعجيبة، وتخلق بذلك واقعا وهميا لدى الناظر إليها، وقد يدفعه ذلك إلى التصرف بصورة غير سليمة، مع ذاته أولا؛ ومع العالم الخارجي من حوله ثانيا. فالقدرة على رؤية الذات والتعامل السليم معها ومع الآخر تتحقق من خلال مستوى نقاء المرآة التي تتجلى فيها وعليها الصور، كما تتجلى التصورات في الأذهان، ونقاء فكر الأمة ووضوحه هو الذي يجلي مكانتها في العالم على صعيد المعرفة والعلم والتكنولوجيا. ويكشف طبيعة نظمها: السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. ناهيكم عن مدى التزام أبناءها بالقيم والمثل المستمدة من الأسس المرجعية التي تستمد منها الأمة مسلماتها ومجمل حقائق فكرها، وتتحدد من خلالها نظرة الأمة للإنسان والوجود. ونظرًا لهذه الأهمية التي يحظى بها التفكير، وما يرتبط به من عمليات التعقل في حياة الأفراد والأمم؛ فقد بوأه القرآن الكريم مكانة متميزة وجعله أساس تكريم الإنسان ومناط التكليف".

ولا يذكر التفكير أو التدبر أو الاستبصار أو الاعتبار أو العلم أو التذكر، في القرآن الكريم إلا في مقام الحث عليه والتنبيه إلى وجوب إعماله واللجوء إليه، وتعظيم شأنه وشأن من يحسن الانتفاع به، ومن يحسنون استخدامه، ومن ذلك قوله تعالى: (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (آل عمران: 191). وقد جعل القرآن الكريم التفكّر في الأنفس وفي مخلوقات الله تعالى أساساً للإيمان، فقال تعالى: (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ) (الروم: 18)؛ الإسلام حينما دعا إلى التفكر، إنّما دعا إلى العلم والمعرفة واكتشاف قوانين الفكر والطبيعة والمجتمع والحياة. وبذا، أعطى الحياة والحضارة والمعرفة الإسلامية صفة الحركية، وهي سر النمو والتطور والفاعلية والبقاء المؤثر في مسيرة البشرية، كما إنهّا حصانة من السقوط والتوقف والغياب التاريخي. وجدير بالذكر أن النقلة الهائلة التي أحدثها الأسلوب القرآني الكريم في الجانب العلمي والمعرفي لا ترجع في جوهرها إلى كم المعلومات والمعارف التي جاء بها بقدر ما ترجع إلى تأثيره البالغ في منهجيّة التفكير وتعدد أساليب دفعه الناس إلى إعمال النظر في كل شيء في الآفاق والأنفس. والعلم لا يبنى إلا بالتفكر والتدبر وتأمل ما في الأنفس وما في الكون.

لذلك، فإن حسن بناء قدرة الإنسان على التفكير "التعقل" السليم السويّ الرشيد هو أساس إحساس الفرد بالمسئولية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بل وهو أساس التكليف الديني. ويفتقد الإنسان أهلية التصرف في شؤونه المالية وغيرها ما لم تتوافر فيه القدرة على التفكير السليم - (الخلل العقليً)، لأن انعدام التفكير السليم يؤدي بالشخص إلى عدم إدراك العواقب السلبية لما قد يتورط فيه من أفعال وتصرفات تضره وتضر الآخرين. والتفكر كما يقول محمد فتح الله كولن: "يعني إعمال الفكر إعمالاً واسعاً وعميقاً ومنظّماً. ولدى أربابه هو زناد

القلب، وغذاء الروح، وروح المعرفة، ودم الحياة الإسلامية وروحها وضياؤها. فإن انعدم التفكر أظلم القلب، واضطربت الروح، وتحولت الحياة الإسلامية إلى موات هامد.

6– التفكير النقدي يكشف عيوب الانغلاق والتحجر الفكري:

(ومن دون (النقد) سيبقى العقل في نوع من حالة الطبيعة).[9]

عملية النقد عملية تستخدم للدلالة على مهام كثيرة منها الكشف والتمحيص وتسليط الضوء على العيوب والأخطاء لتحديدها أولا ولتجاوزها ثانيا. أما التفكير النقدي، فيمكن تعريفه بأنه عملية إيجاد قناعات شخصية من خلال التحليل، التفسير، التقييم، والاستدلال حيال حالة ما؛ وهو بهذا يمكننا من التحقق من الشيء والنظر في قيمته وتقييمه، ويتحقق بالتفاعل مع ما يماثله أو يقابله من أفكار ومشاكستها، وبمعنى آخر، هو تجاوز لاستنتاجات الآخرين.

ويرتبط التفكير النقدي بأشكال أخرى من التفكير، كالتفكير التحليلي، والتفكير التأملي والتفكير الابداعي؛ كما يشمل أغلب مهارات التفكير، لهذا يعد هذا النوع من التفكير من أكثر أشكال التفكير المركب استحواذاً على اهتمام الباحثين والمفكرين التربويين.

ويرى الدكتور عبد الوهاب المسيري، أن العقل النقدي يتسم بعدة مواصفات حددها فيما يلي:

1- ينظر العقل النقدي إلى الإنسان لا باعتباره جزءاً من كل أكبر منه يعيش داخل أشكال اجتماعية ثابتة معطاة، مُستوعَباً تماماً فيها وفي تقسيم العمل القائم، وإنما باعتباره كياناً مستقلاً مبدعاً لكل ما حوله من الأشكال التاريخية والاجتماعية.

2- العقل النقدي يدرك العالم (الطبيعة والإنسان) لا كما تدركه العلوم الطبيعية، باعتباره مُعطَى ثابتاً ووضعاً قائماً وسطحاً صلباً، وإنما يدركه باعتباره وضعاً قائماً وإمكانية كامنة.

3- العقل النقدي لا يقنع بإدراك الجزئيات المباشرة، فهو قادر على إدراك الحقيقة الكلية والغاية من الوجود الإنساني.

4- العقل النقدي قادر على التعرف على الإنسان ودوافعه وإمكانياته والغرض من وجوده.

[9]- انظر: KANT, Critique de la raison pure in Oeuvres I, p 1326

5- العقل النقدي، لكل ما سبق، قادر على تَجاوُز الذات الضيقة والإجراءات والتفاصيل المباشرة والحاضر والأمر الواقع (ولذا يمكن تسمية «العقل النقدي» بـ «العقل المتجاوز»). فهو لا يذعن لما هو قائم ويتقبله، وإنما يمكنه القيام بجهد نقدي تجاه الأفكار والممارسات والعلاقات السائدة والبحث في جذور الأشياء وأصولها وفي المصالح الكامنة وراءها والمعارف المرتبطة بهذه المصالح (وهذا هو الجانب التفكيكي في العقل النقدي).

6- الحقيقة الكلية التي يدركها العقل النقدي والإمكانيات الكامنة ليست أموراً مجردة متجاوزة للإنسان (الفكرة الهيجلية المطلقة)، وإنما هي كامنة في الإنسان ذاته، والعقل النقدي قادر على رؤيتها في كمونها هذا؛ (أي أن الإنسان يحل محل الفكرة المطلقة).

7- التاريخ هو عملية كاملة تتحقق من خلالها الذاتية الإنسانية؛ أي أن التاريخ هو الذي يُردُّ إلى الإنسان (خالق التاريخ) وليس الإنسان هو الذي يُردُّ إلى التاريخ. ولذا، فإن المجتمع في كل لحظة هو تجل فريد للإنسان؛ وتحقق الإمكانية الإنسانية في التاريخ هو الهدف من الوجود الإنساني.

8- يمكن إنجاز عملية انعتاق الإنسان من خلال التنظيم الرشيد للمجتمع (المبني على إدراك الإمكانية الإنسانية) من خلال الترابط الحر بين أفراد، عند كل منهم نفس الإمكانية لتنمية نفسه بنفس الدرجة وبذا يمتنع الاستغلال.

9- يمكن للعقل النقدي أن يسهم في هذه العملية من خلال الجهد التفكيكي. ويمكنه أيضاً القيام بجهد تركيبي إبداعي، فهو قادر على التمييز بين ما هو جوهري وبين ما هو عرضي، وعلى صياغة نموذج ضدي، لا انطلاقاً مما هو مُعطَى، وإنما مما هو مُتصوَّر وممكن في آن واحد.[10]

ويرى المسيري، أننا إذا استطعنا أن نحدّد معايير لعملية النقد بشكل منهجي وليس بطريقة عفوية، وإذا وقفنا مع أنفسنا وِقفة منهجية نراجع فيها أنفسنا وما أصابنا وأصاب أعمالنا، فإننا سندرك أنه لا بد لنا من آلية منهجية نصحّح بها أفكارنا وآراءنا وأعمالنا، لتنسجم مع مراد الله في الخلق والأمر، هذه الآلية المنهجية هي النقد بما له من معايير واضحة.

وقد كان كثير من علمائنا في عصور التألق والازدهار مثالا لهذا النوع من التفكير، ويمثل الفيلسوف ابن رشد خير نموذج لهذه العقلية النقدية المتفتحة، فقد قرر أن الاطلاع على ما لدى الآخرين يعد واجبا شرعيا، ثم أضاف قائلا: ننظر في الذي قالوه من ذلك وما أثبتوه في كتبهم، فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم.

[10]- عبد الوهاب المسيري، **رحابة الإنسانية والايمان**، دراسات في أعمال مفكرين علمانيين وإسلاميين من الشرق والغرب، ص70-71، الطبعة الأولى 2012 دار الشروق.

ولا شيء يحجب الحقيقة كما يقول الدكتور طه عبد الرحمن: "مثلما يحجبها الرأي الواحد حتى ولو كان صوابا"، إذ يكون قد فوّت على المخالف معرفة أسباب خطئه، حتى لا يعود إليه؛ والتسلط يجعلها تملي على غيرها ما ينبغي أن يفكر فيه وما لا ينبغي أن يفكر فيه؛ ولا شيء يضر بهذا الفكر، مثلما يضر هذا الإملاء، إذ يضيق آفاقه ويخمد طاقات الإبداع فيه؛ وأخيرا الإقصاء يجعلها تمنع غيرها من ممارسة حقه في التفكير؛ ولا أظلم ممن يسلب سواه حق التفكير؛ لأنه ليس في الحقوق أعلق منه بضمير الإنسان، مع العلم بأن الضمير يكاد أن يطابق ذات الإنسان؛ فإذا لحقه الانتهاك، لم يبق حق من الحقوق لم يلحقه الانتهاك".[11]

7- الوضوح الفكري لا ينشأ إلا من خلال تفكير نقدي بناء:

والمفروض أن مصطلح التفكير نفسه يتضمن، أو ينبغي أن يتضمن قدرا مهما من الوضوح والتوضيح؛ فعند ما نقول مثلا بأن فلانا فكر في الأمر، فإننا نقصد أنه أعمل العقل فيه، ورتب بعض ما يعلم ليصل به الى مجهول. وجاءتْ مادَّة" فكر "في" لسان العرب "بمعنى إعْمال الخاطر في الشَّيء[12]، لهذا سمي الفكر في أصله مقلوب عن الفرك بفتح الفاء من فعل فرك يفرك فركاً) والفرك يحمل دلالات كثيرة لعل أولها بذل الجهد، وغسل الثوب وتنقيته من الأوساخ التي تعلق به، لكن يستعمل الفكر في المعاني، وهو فرك الأمور وبحثها طلباً للوصول إلى حقيقتها. وتتضمن عمليات التفكير أنواعاً متعددة من المهارات منها: التمييز، والتصنيف، وتكوين المفاهيم، وحلّ المشكلات والتخطيط، والاختيار، وإصدار الأحكام، والتعبير اللغوي والاستدلال، وإنتاج إبداعات فنية أو أدبية أو علمية...إلخ. فالعقل كما يقول د المسيري ليس مجرد صفحة بيضاء تتراكم عليها المعلومات، وتصبح معرفة من تلقاء نفسها، "فهو لا يسجل تفاصيل الواقع كالآلة الصماء بأمانة بالغة ودون اختيار أو إبداع"،[13] بل العقل في أبسط العمليات الإدراكية فاعل فعال، مبدع حر، يتمتع بقدر من الاستقلال عن المعطيات المادية المحيطة به وعن قوانين الطبيعة/المادة. العقل - إذن - "يعيد صياغة الواقع من خلال النماذج المعرفية والإدراكية أثناء أبسط عمليات الإدراك"[14]، وقد عبر عن هذا آرنست كاسيرار بقوله: (ليس العقل محتوى محدّدا من المعارف والمبادئ والحقائق، وإنّما هو طاقة، وقـوّة لا يمكن إدراكها بتمامها إلاّ في فعلها وآثارها. ولا يمكن أبدا قيس طبيعتها وقدراتها قيسا تاما بنتائجها. يجب الالتجاء إلَى وظيفته، ووظيفته الجوهرية هي القدرة على الرّبط والتّفكيك... إنّه بهذه الحركة الفكرية المضاعفة يتميّز تمام التّميز لا كفكرة كائن، وإنّما كفكرة فعل).[15]

---

[11]- طه عبد الرحمن، **"الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري"**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، ط 2، 2009م، ص 145

[12]- المعجم الوسيط مادة الفاء والكاف والراء.

[13]- د عبد الوهاب المسيري، **مقدمة "إشكالية التحيز"**، مرجع سابق، ص 18

[14]- د عبد الوهاب المسيري، **"العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة"**، ج 2، ص 444

[15]- **"العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة"**، ج 2، مرجع سابق، ص 444

فالذي يمارس التفكير هو إنسان يحلل ويقارن ويركب ويستنتج، وكل هذا يتطلب قدرا كبيرا من الوضوح وتحكمه في العمق رؤية فاحصة ناقدة هي التي توجه وتختار وتقيم إلخ. التفكير النقدي قد يعرف: بأنه القدرة على التحقق من صحة الافتراضات أو الأفكار أو الأخبار، وكشف ما تحمله من حقائق؛ وفحص وتقويم الحلول المعروضة. والنقد في اللغة العربية يعني إظهار الجودة والعيب في الشيء، والتفكير النقدي تفكير التأملي العقلي الذي يركز على ما يعتقد به الفرد أو يقوم بأدائه. والمفكر الناقد هو الشخص الذي يفكر ويحلل بعد الغوص في المعلومات، ويسعى إلى التحقق من دقتها ومن صحتها، ويطرح الأسئلة والمشاكل والاحتمالات، لتضييق نطاق البحث ويتأمل المواقف ثم يقوم بتقييمها بناءً على الإمكانيات التي لديه، ثم يطلق الأحكام أو المقترحات بعد ذلك. هذه العملية تكون في جميع فترات حياة الإنسان أثناء القراءة، وأثناء الكتابة، وعند سماع الأخبار، أو عند مناقشتها. فالنقد وسيلة لإثارة العقل وتحريك الأفكار عبر مواجهتها بالأسئلة وهذا ما يجعل النقد إيجابيا.

وعادة ما أضرب المثل على هذا النوع من التفكير، لطلبتي في مناهج البحث، بالتفكير الذي اتبعه اسحق نيوتن مثلا، حين سقطت عليه التفاحة. فلو أنه لم يفكّر تفكيراً نقديا إيجابيا، لما كان سباقا إلى اكتشاف قانون الجاذبية. فقد سلك في طريقة تفكيره مسلكا نقديا مخالفا تماما للتفكير العادي التقليدي الذي كان سائدا قبله، والذي يرى أن العادة اقتضت بأن كل شيء يسقط ينحدر من أعلى إلى أسفل، وأن هذا حدث ويحدث باستمرار وكفى، دون البحث في سبب هذا ودون استنتاج حقائق جديدة أكثر تفسير للموضوع. أما نيوتن، فقد تعمق في السؤال عن سبب ما حصل، فراح يتساءل، ويحلل، ويُخمّن، ويتحقق... إلخ. إلى أن وصل إلى اكتشافه الكبير حول قانون الجاذبية الذي تحول إلى قواعد علمية دقيقة.

إذن، هو لم يكتفِ بـ "ماذا حدث"؟، وإنما راح يفكر بـ "لماذا حدث"؟ "وكيف حدث"؟

ومن خلال هذا المثل في التفكير النقدي، يتبين لنا أن هذا النوع من التفكير ذو أبعاد متعددة، فهو آلية من آليات التمحيص والهدم وإعادة البناء ووسيلة الخلق والإبداع الذي هو شرط التطور والتقدم لكل أمة. وتتضمن عمليات التفكير الإنساني أنواعاً متعددة من المهارات منها: التمييز، والتصنيف، وتكوين المفاهيم، وحلّ المشكلات والتخطيط، والاختيار، وإصدار الأحكام، والتعبير اللغوي والاستدلال، وإنتاج إبداعات فنية أو أدبية أو علمية...إلخ؛ فالذي يمارس التفكير هو إنسان يحلل ويقارن ويركب ويستنتج. وكل هذا يتطلب قدرا كبيرا من الوضوح وتحكمه في العمق رؤية فاحصة ناقدة هي التي توجه وتختار وتقيم إلخ.

التفكير النقدي والإبداع: التفكير النقدي لا يتوقف دوره على جمع الأفكار وتصنيف المعطيات والظواهر الجديدة ومراكمة المعلومات، ولا يشترط إعمال النقد بالضرورة الإحاطة والاستيعاب لكل معارف العصر، مع استحالة ذلك بطبيعة الحال، لأن حفظ المعارف الكثيرة لا يعد بالضرورة علامة على الخروج من القصور

الفكري؛ فقد يعبّر ذلك أكثر على غلبة روح التقليد والتّبعية، لأن الاكتفاء بمراكمة المحفوظات وترديدها من دون تأملها، قد يدل على غلبة الكسل والخوف من الاجتهاد، كما أن الاكتفاء بحفظ المعلومات ومراكمتها وحشو الذهن بها، لا تجعل فاعلها عالما بالضرورة، وحفظ الأشعار وترديدها لا جعل المرأ شاعرا ما لم تتكون لديه ملكة ذلك. كما أن حفظ دروس الفلسفة لا تجعل من الحافظ لها فيلسوفا. والتفكير النقدي بهذا الاعتبار لا يحصل بمجرد الادعاء، بل هو مهارة وملكة تتحققان بعد التحرر من التبعية والتقليد والخمول.

وتدفعان صاحبهما باستمرار لطرح التساؤلات الجديدة، وتفكيك الخطاب وتحليله وتأويله، واستشراف فضاءاته وآفاقه وأبعاده ودواخله، وسبر جوهره ليعيد إنتاج خطاب جديد، ويولد أفكارا جديدة ويقدم أكبر قدر من التفسيرات للأشياء، وللظواهر من حوله، والمفكر الناقد يعيد طرح التساؤلات حول الأنماط والعادات السلوكية والاجتماعية السائدة، ولا يسلم بها بالضرورة، وهو بهذا يتجاوز المعتاد والمألوف. هذا هو المفكر الحقيقي، أو إن شئت المفكر المعلم الذي يكشف لك بجلاء ما هو غامض ودفين، ويبين لك كيف تُشغل عقلك وتستثمر مهاراتك في توليد الأفكار، وتصقل قدراتك الفكرية.[16]

8- أهم معايير تفكير الناقد:

نظرا لأهمية هذا النوع من التفكير وارتباطه بما تتطلبه مجتمعات المعرفة اليوم من رأسمال بشري منتج للمعرفة العلمية في كافة المجالات، خصصته الدراسات المنهجية بكثير من الاهتمام، وحددت عدة عوامل تسهم في تكوينه منها: التعلم والتدريب والصبر والتزود بزاد المعرفة، والاستعداد لنقد الذات وتقبل الآراء المخالفة، والتواضع في طلب العلم وعدم التعصب لرأي أو لمدرسة معينة أو لعادات اجتماعية منتشرة، لتتكون تلك الملكة النقدية التي تُكتسب المفكر تلك المقدرة العظيمة في معالجتها للواقع بكافة أحداثه وتقلباته وتكون قادرة على بناء مجتمع سليم ومتحضر. وهناك معايير دقيقة ومحددة وضعت لقياس مستوى هذا النوع من التفكير، وهي عبارة عن مواصفات عامة اتفق عليها الباحثون في مجال التفكير، واتخذوها أساساً في الحكم على نوعية التفكير الاستدلالي أو التقويمي الذي يمارسه الفرد في معالجة المواضيع المختلفة، ويمكن تلخيص أهم تلك المعايير في الأمور التالية:

1- الوضوح: المقصود بالوضوح في المجال الفكري، يبدأ من القدرة على التمييز في المشكلات والقضايا الفكرية التي نتناولها والتمييز بين ما هو فلسفي وما هو علمي وما هو إيديولوجي، حتى نتمكن من حل المعضلات التي تتضمنها. والوضوح الفكري بهذا الاعتبار هو المنطلق والأساس الذي يتأسس عليه كل تفكير

[16]- من المعروف أنّ عددًا كبيراً من الهيئات العلمية والتربوية، يقوم اليوم في عدد كبير من الدول الكبري، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية واليابان، بإعداد برامج لرعاية النابغين والمبدعين في مختلف مجالات الإبداع من مراحل مبكرة من العمر، وتستمر هذه الرعاية خلال مراحل الشباب والنضج. وذلك بتوفير سياق تربوي نفسي واجتماعي يتم فيه تنمية عمليات التفكير الإبداعي، ومن ذلك برامج رعاية النابغين ابتداء من مراحل التعليم قبل الابتدائي إلى مرحلة التعليم الجامعي.

سليم، وهو من أهم معايير التفكير الناقد، باعتباره المدخل الرئيس لباقي المعايير الأخرى، فإذا لم تكن الفكرة أو العبارة المعبرة عنها واضحة فلن نستطيع فهمها، ولن نستطيع معرفة مقاصد المتكلم، كما لن يكون في مقدورنا الحكم له أو عليه. وكلما اكتسب ذلك الفكر مهارات النقد واستوعب أساليب التحليل والمقارنة وفن الاستنتاج، كلما كان ذلك الفكر فكرا منفتحا ومستوعبا وأكثر وضوحا؛ وكلما انفصل الفكر عن مهارات النقد كلما امتدت إليه علل التبسيط وآفة التسطيح والانغلاق والركون للأحكام الجاهزة والخضوع للشعارات المتداولة والمتوارثة دون نظر أو تمحيص.

2- الدقة: والدقة في التفكير تعني استيفاء الموضوع صفة من المعالجة، والتعبير عنه بلا زيادة أو نقصان. والدقة لا تعني فصل الاجزاء وتفكيك المركب ثم النظر إلى الكلي من خلال الأجزاء المكونة له؛ بل ينبغي النظر إلى الأجزاء في اندماجها في ذلك الكل، وليس العكس. ومعيار الدقةَ يقتضي تعريفِ الألفاظ تعريفًا يماثلُ تعريفَ المفردات الرياضية، لأن دقة التفكير تقوم أساسا على دقة المفردات والكلمات التي يتحقق بهما التواصل، وعدم دقتهما يولد الاضطراب الفكري والفوضى المعرفية التي يتولد عنها الغموض. ويمكن القول بأن جُلَّ الحروب والاختلافات التّي نشأتْ بين الفرق والمذاهب المتخاصمة في التاريخ البشري، إنما ترجعُ إلى اختلافٍ بينها في فهمِ مبدإ لفظي معين، استخلص منه كلُّ فريقٍ نتائجَ تختلفُ عما استخلصه الفريقُ المناقض له. وأهمية هذا المعيار في تناول قضايا الفكر العربي المعاصر يفرضه كذلك كون المسلم الذي يعيش هذا العصر ويمر بتحولاته، يعاني عقله من تخمة فكرية ناجمة عن تراكمات معرفية مختلفة في أصولها المرجعية، ومتباينة في سياقاتها الثقافية والتاريخية، تجمعت ضمن الفضاء العقلي العربي المسلم من دون ترتيب أو نظام، وهذه الفوضى التي يعيشها الإنسان العربي، تتجلى في معايشه مع منظومات متناقضة، ومنهجيات علمية متعارضة جنبا إلى جنب في ضميره ووجدانه.

ومِنْ هنا، فلا عجبَ حين يرى الدكتورُ زكي نجيب محمود أنَّ جُلَّ الحروب التّي نشأتْ بين الفرق المتخاصمة، إنما ترجعُ إلى اختلافٍ بينها في فهمِ مبدإ لفظي معين، استخلص منه كلُّ فريقٍ نتائجَ تختلفُ عما استخلصه الفريقُ المناقض له. والتحلي بالدقة تجعل المفكر يبحث عن أسباب كل حادث ومقدماته ونتائجه ومقاصد القائمين عليه، ويسعى إلى كشف الموقف المناسب تجاه هذا الحادث.

3- الصحة: وهو أن تكون العبارة صحيحة وموثقة، وقد تكون العبارة واضحة ولكنها ليست صحيحة. وقد تكون الفكرة صحيحة في ذاتها لكنها غير صالحة للسياق الذي يراد أن تدمج فيه. ومن القواعد المنهجية المهمة التي التزم بها علماؤنا وعلموها لطلبتهم أنه: "إذا كنت ناقلا؛ فالصحة وإن كنت مدعيا فالدليل". ولابد من التمييز بين صحة الفكرة وصلاحيتها للسياق الزمكاني أو السياق الحجاجي الذي ترد فيه، فلا يعني أن كل فكرة كانت صحيحة في زمان ومكان وسياق ما أنها صالحة لكل زمان ومكان كما يقول مالك بن نبي. وعدم إدراك هذا أوقع شريحة واسعة من مثقفي التيارات الفكرية المختلفة في أخطاء شنيعة، حيث نجد السلفي منهم ينقل

ويغرف من التراث ما يعرف وما لا يعرف من دون مراعاة اختلاف السياق الزمكاني، وكذلك يفعل الحداثي حين ينقل من التجربة الغربية ما قد لا يتناسب مع واقعه وزمانه، وهذا ما أدى إلى اغتراب الجميع عن إدراك حقائق الاسلام وجوهره من جهة، وعن إدراك حقيقة الحداثة وجوهرها من جهة ثانية، مما نتج عنه توتر علاقة السلفي مع العصر ومع الحداثة، وتوتر علاقة الحداثي مع الإسلام ومع التراث، حصل لهم ذلك لأنهم بنوا العديد من تصوراتهم ومواقفهم وأحكامهم على أحكام ومواقف غير صحيحة، وعلى دراية غير كافية.

4- العمق وعدم السطحية في التفكير: فالعمق يعتبر أساس الوعي، وأساس الإدراك والفهم، ويقصد به ألا تكون المعالجة الفكرية للموضوع أو المشكلة في كثير من الأحوال مفتقرة إلى العمق المطلوب الذي يتناسب مع تعقيدات المشكلة، وألا يلجأ في حلها إلى السطحية، فيكتفي بالنظر إلى ظواهر الأشياء، ولا ينفذ إلى معرفة حقائقها وجوهرها.

والتفكير النقدي لا يقف مع أعراض الأزمة ويتجاهل الأسباب العميقة لها ولايطلق الأحكام العامة على الأشياء أو الناس أو الأفكار، فيدعي بأنها جيدة أو سيئة بناء على تصورات شخصية، أو خبرات سابقة محدودة.

5- شمولية النظرة وتكاملها: وتتحق من خلال القراءة المكثفة، والتنوع الغنيّ للمعرفة والاطلاع الواسع على المعلومات من مختلف المصادر والأخذ بجميع جوانب الموضوع. وشمولية النظرة واتساع أفقها هو الذي لا يقف عند حدود ما تفرضه الثنائيات المتقابلة من قبيل العقل أم النقل، الإيمان القلبي أم البرهان العقلي الفلسفي... إلخ.؟ "فقد وحد تراثنا الفلسفي بين العقل والإيمان أو بين الفلسفة والدين، أو بين الحكمة والشريعة، لم يكن الهدف من ذلك تحقيق مطلب خارجي، وهو التوفيق بينهما من أجل بيان اتفاق الدين الإسلامي والفلسفة اليونانية، هدف إخوان الصفا، بل كان الهدف تحقيق مطلب داخلي هو تأسيس الإيمان على العقل،...وارتكاز الشريعة على الحكمة... فلا شيء في الإيمان لا يقوم على العقل، ولاشيء في العقل يناقض الإيمان...لأن الحق لا يطاد الحق، بل يوافقه ويشهد له؛ على ما يقول إبن رشد".[17]

كما أن من أسس المنهجية الإسلامية أنها لا تنظر إلى المعرفة كشذرات متفرقة، منفصل بعضها عن الآخر، ولا يجمعها نظام متكامل، بل توحد المعرفة الإسلامية بين أجزاء الوجود الكوني، رغم تباينها وتعدد تجلياتها بين عالم الشهادة وعالم الغيب، وبين المادة والروح، وتتواصل شرائح الوجود الاجتماعي والإنساني، رغم اختلاف الشعوب والأمم في سياق واحد، ويتكامل هذا وذاك في كيان حكمة الخالق من الوجود والخلق.

والدراسات الثقافية والحضارية عموما، تحاول أن تنظر إلى مشكلات الأفراد والمجتمعات نظرة تتسم في الغالب بنوع من الشمولية والاتساع، محاولة منها للوصول إلى تحديد أغلب العوامل المؤثرة سلبا أو إيجابا في

[17]- حسن حنفي، **"الدراسات الإسلامية"**، ص 96

الظاهرة المراد دراستها، وفي غياب هذا المعيار تفقد النظرة للأسس المرجعية كما للتراث المنبثق عنها الوحدة الموضوعية الكلية التي تميزه وهذا ما فسح المجال لبروز نظرة انتقائية جزأت التراث تجزيئا، لأن أصحابها اعتمدوا المفاضلة، وغلب عليهم الاشتغال بمضامين النص التراثي دون النظر في الوسائل اللغوية والمنطقية التي أنشئت بها هذه المضامين، يقول د. عبد الإله بلقزيز: "إن هؤلاء جميعا يكادون يتجاهلون أمرا بالغ الأهمية بالنسبة إلى حاضرنا، وهو الحق في معرفة التراث في وحدته الكلية، لا في أبعاده المنتخبة، على اعتبار أهمية هذه المعرفة، في بناء وعينا بتاريخنا على أسس غير مغشوشة؛ فالمقاربة الانتقائية للتراث تؤسس لهذه القواعد المغشوشة، إذ هي تزوير لتاريخية التراث، وفصل تعسفي لترابط حلقاته، وممارسة إسقاطية عليه، وهي لكل تلك الأسباب، ولغيرها، مقاربة غير قابلة لتنمية وعينا، وتطوير علاقتنا به".

6- الربط: وحسن الربط هو ما يطلق عليه الحكمة التي تحسن الربط بين السؤال وجوابه، وبين المقدمات والنتائج التي تصدر عنها؛ وعدم الحكمة يعني الذهول والتنكب عن المقاصد، كما يعني العجز عن إدراك العلاقات بين الأشياء وإدراك مكانة وحجم كل عنصر بين عناصر الموضوع الذي يفكر فيه. وهذا الربط هو الذي يكشف حقيقة التكامل المعرفي والمنهجي اللذين يعطيان الدلالات والمعاني العميقة للآراء والاجتهادات الفكرية. ويعتبر ابن خلدون في هذا الصدد من الرواد الأوائل الذين تنبهوا إلى ضرورة الربط بين عدة عناصر بشرية وجغرافية وبيئية وثقافية لفهم الظاهرة الحضارية- أو ظاهرة"العمران البشري حسب تعبيره "-التي لا تتشكل بسبب واحد، أو حتى بسببين أو ثلاثة. وإنما تتشكل بجملة من الأسباب التي منها ما هو ظاهر للعيان بارز ومحسوس وما هو خفي مستور لا يدركه إلا ذوو الفطنة من أصحاب العقول الراجحة والألباب المتفتحة.

7- المنطق: وتحصين العقل من الاستلاب للمؤثرات البلاغية يعني أن يكون الاستدلال على حل المشكلة منطقياً، لأنه المعيار الذي استند إليه الحكم على نوعية التفكير، والتفكير المنطقي هو تنظيم الأفكار وتسلسلها وترابطها بطريقة تؤدي إلى معنى واضح، أو نتيجة مترتبة على حجج معقولة. ولقد عبّر عن هذا "أرسطو" بشكل واضح: "إنّني أحبّ أفلاطون ولكنّي أحبّ الحقيقة أكثر". فالحقيقة هي الحق والحق يعلو ولا يُعلى عليه - وهنا يظهر الجانب الأخلاقي المرتبط بالفعل الإنساني. و تبعا لذلك، يمكن أن نضيف خاصية ضمنيّة، وهي أن التفكير الفلسفيّ تفكير منطقي حـــر. غير أن عظمة الفكرة لا تكمن في صحتها واستنادها إلى المنطق السليم فقط، وإنما في فاعليتها وآثارها العملية، وقدرتها على نقل الناس من واقع سلبي إلى واقع إيجابي...

وإذا حدث غياب هذه المعايير كما هو الحال في واقعنا اليوم، فإن هذا يولد ثقافة وسلوكا لا حضاريا، تهدر فيه الطاقات المعنوية والمادية وتسيطر فيه التقاليد على حساب حقائق الدين الجوهرية، وتتعطل فيه ملكات العقل.

وعوائق التفكير النقدي المستنير عديدة وتختلف من شخص إلى آخر منها مثلا: الفهم الخاطئ لمعنى النقد، أو التعصب والنظر إلى كل شيء من محور الذات "أناني" واحتقار آراء الآخرين؛ وكل العوائق تخلق ما سماه إيمانويل كانط ب"قصور الفكر وعجزه عن حصول أي شكل من أشكال التنوير"[18] اللازمة لانطلاق أية نهضة أو حصول أي تطور أو تقدم.

ويرجع مسببات هذا القصور الفكري إلى عوائق ذاتية أساسية، وعوائق عامة، ويحددها في الآتي:

ـ عوائق ذاتية عائدة إلى الإنسان نفسه، ومنها: العجز عن استخدام الإنسان لفهمه الخاص وقبوله لوصاية الغير؛ وكذلك استسلام الإنسان للجبن والكسل؛ وعدم تنبيه لما يسميه بخيار "الخطورة نحو الرشد"؛ ورعايته لقصوره لدرجة تحوله إلى عادة وحالة دائمة. ونتيجة كل هذا على الذات: التطبع الدائم على الوصاية والقصور.

ـ ومعيقات عامة تتحدد فيما سماه: نشاط الأوصياء المستديم في الإبقاء على غفلة القاصرين؛ وتقنين الأوصياء لعتبة تفكير وتحرك الراغبين في الإبقاء على قصورهم؛ والنظم والقوانين المؤثرة سلبا على استعمال المواهب الطبيعية؛ وغياب المناخ المسعف على التفكير المستنير والمفضي إلى التحرر من القصور والوصاية.

وعلى مستوى الآفاق والإمكانيات التي يطرحها "كانط" لمغالبة العوائق المذكورة، فإنه يصنف المعنيين بالتفكير النقدي إلى فئتين: فئة أقلية "النخب" وفئة "عامة الناس"، ويراهن فقط على الفئة الأولى "فئة الأقلية" التي يعتبرها تجاهد موفقة لانتزاع نفسها من القصور حتى ولو لم تتحقق شروطه العامة[19] وبواسطة الأسلوب المتأني يتسنى لعامة الناس المساهمة في التنوير المفضي إلى الإصلاح الحقيقي لنمط التفكير.

أمام كل هذا، فإننا نرى استحالة حدوث أي نهوض، أو تجديد، أو تطوير في حركة مجتمع ما، من غير أن يترافق ذلك مع مراجعات ونقد في فكر أبنائه، ومناهجهم، ومفاهيمهم الحاملة لأسسهم المرجعية، والمحددة لها، في الآن نفسه قصد إزالة ما علق بها من جمود ورواسب بالية، وعوائق منهجية، وسلبية.

الأسس المرجعية: الوعي المنهجي والنقد المفاهيمي

المسلمات المنطلقات المشكلة للمرجعية:

لاشك أن أي عمل فكري أو مشروع ثقافي، لا يمكن أن يقوم صرحه أو تتضح معالمه ومقاصده، ما لم تكن المحددات المرجعية والمسلمات التي يقوم عليها وينطلق منها واضحة وجلية، وكل التباس أو غموض في هذه المنطلقات والأسس يؤدي لا محالة إلى غموض المشروع كله. فهذه الأسس المرجعية هي التي تحدد الرؤية

[18]ـ انظر: إيمانويل كانط، (ما هو التنوير)، مجلة فكر ونقد، دجنبر 1997، ترجمه عن الألمانية، إسماعيل المصدق. (ص ص 143-151)
[19]ـ المرجع نفسه.

وتعين الوسائل التي يتخذها الناس في الحياة، وتكيف سائر اختياراتهم الواعية وغير الواعية. لهذا كانت دائرة الأسس المرجعية والمفاهيم المعبرة عنها، ولاتزال أهم ميادين الصراع الفكري والثقافي بين الثقافات والحضارات والفلسفات، وستظل كذلك ما دامت هي المكونة لتصورات وقناعات وعقائد الناس وتشكيل تصوراتهم ومذاهبهم في الحياة. لهذا تجد الفلسفة فلسفات من حيث إن المنطلقات ليست واحدة، ولهذا كذلك، نجد أن نتائج منظومات التفكير ليست واحدة.

ولاشك أن كل قراءة لتاريخ فكر ما، أو لثقافة ما، ما هو إلا تأويل يعكس بالدرجة الأولى مسلمات ثقافة ومكونات و تاريخ وتجربة الذي يقوم بتلك القراءة، حيث يكون هناك دائما إسقاط من نوع ما، لأن أية قراءة تظل محكومة شاءت أم أبت بمحددات الإطار المرجعي والحضاري الذي تنبثق منه، وتعكس تصوراته العامة وفلسفته للكون والحياة والإنسان. والأسس المرجعية بمعناها العامّ هي الخلفية الثقافية والعلمية التي تؤطّر وضْع المصطلحات وتحديد القناعات وخلق التصورات.

لذا، فإن التفكير النقدي الذي مارسه بعض المفكرين منذ عصر النهضة حول هذه الأسس المرجعية أعاد قراءة تاريخ الفكر العربي والإسلامي في لحظة نشأته، وفي مسار تطوره، كما عمل على إعادة تحديد مجالاته؛ وعودة البحث في الأسس المرجعية يرجع عند أولئك المفكرين لإحساس نابع من كونهم يعتقدون أن من بديهيات قوانين الحضارات أن أي نهوض أو تجديد أو تغيير حضاري منشود لا يمكن أن يدرك مراده وتتحقق غايته ما لم يستمد قوته ومقوماته من مخزون الأمة العقدي والنفسي والثقافي والفلسفي؛ فهذا المخزون هو الذي يشكل باستمرار ذلك الإطار المرجعي الذي يحدد المنطلقات، ويرسم التصورات ويحدد قيم الأمة، بل ويرسم ملامح تطلعاتها المستقبلية. (وكل جماعة تحتاج كي تقوم وتستمر بالإضافة إلى العلم والتقنية إلى أطر مرجعية روحية ورمزية أخلاقية تكون مصدر تواصلها وإلهامها، توحد مشاعرها وتتحكم بردود أفعالها وتشترط رؤيتها العامة وتوجهاتها العميقة).[20]

والأسس المرجعية في هذا المجال هي التي تنتظم في سلكها النُظم الفكرية المختلفة، كما تشكل الإطار المعرفي لمنهجية الفكر، وتحدد نظرته للكون وتفسيره للوقائع، وتمنح الحياة قيمتها ومعناها، وتبيّن للإنسان دوره في صنع الأحداث وغايته في الوجود، فيقع بذلك أثر تلك النظرة على الفرد والمجتمع في سعيهما لأداء رسالة التعمير والبناء الحضاري. ولكل مجتمع مسلماته الثقافية الخاصة به من دون المجتمعات الأخرى... وتغييرها يؤدي بالتبع إلى تغيير ما انبنى عليها.

فإلى أي حد يمكن القول بأن المسلمين اليوم ينطلقون من أسس مرجعية جامعة، وينطلقون من مسلمات واضحة وثابته، وهل بقيت هناك بالفعل مسلمات تتوحد النخبة الفكرية عندنا عليها؟

[20]- برهان غليون، "**اغتيال العقل**"، ص 297

لعل الجواب عن هذه التساؤلات يتطلب أولا تحديد معنى المسلمات وبيان دورها في بناء الذات وتشكيل المناهج وتوجيه وتحديد المفاهيم.

فالمسلمات في الاصطلاح العلمي هي «قضايا واضحة لا يمكن البرهنة عليها، وهي خاصة بكل فروع العلم. فلكل علم مسلماته أو مصادراته الخاصة به من دون العلوم الأخرى»[21]. والمسلمات تتسم بالثبات والموضوعية؛ أي أن المسلمة لدى صياغتها تبقى ثابتة لا تقبل التغيير ولا تحتاج إلى برهان، لأنها أصل البرهان ومنطلقه الأساس، كما أن المسلمة تتسم بطابع التمايز؛ أي أنها تختلف من مجال علمي إلى آخر، بل ومن نسق إلى آخر ضمن نفس المجال... وقد نجد تقاربا بين مفهوم المسلمة ومفاهيم أخرى كالقناعات والبديهيات، إلى درجة يصعب معها التمييز بين تلك المفاهيم. إلا أن هناك فروقا بينها تتجلى على المستوى اللغوي. ويعرفها المعجم الفلسفي المسلمة بأنها «قضية ليست بديهية بذاتها ولا يستطاع البرهنة عليها، ومع ذلك يسلَّم بها، ويمكن أن نستخلص منها نتائج لا يرفضها العقل».[22] وبهذا فلا مطابقة بين المسلمات والبديهيات. أما البديهيات، فيمكن تعريفها بأنها «قضايا عامة واضحة بذاتها ولا يمكن البرهنة عليها، لأنها ليست في حاجة إلى برهنة. وهي عامة، مثال ذلك: الكل أكبر من الجزء».[23]

أما القناعات، فإنها ذات طابع نفسي: إذ هي «إذعان نفسي لما يقبله الإنسان من أدلة يرى فيها صدقا ولا يحيد عنها»[24]. فالقناعات هي تمثلات شخصية يصل الإنسان إلى درجة التصديق بها والتسليم بها لأسباب ذاتية تتعلق به، وقد لا تحمل نفسُ الأسباب غيرَه على التصديق بذات القناعة. أما البديهيات، فهي القضايا التي لا يختلف الناس حولها على اختلاف مشاربهم ومنطلقاتهم، وذلك لكونها محط اتفاق بين الجميع، وهي من قبيل قولنا إن الأشياء تسقط من الأعلى إلى الأسفل وليس العكس.

وحينما نقول مسلمات الفكر النهضوي الإسلامي، فإنما نقصد أن لهذا الفكر أسسا مرجعية ثابتة يقوم عليها ويستمد منها و جوده، ويبني من خلالها قضاياه المختلفة كما يكتسب من خلالها روحه وهويته التي تحدد توجهه، وتحكم منهجه في بناء مسائله وكذا في تفاعله مع المنظومات الفكرية الموازية، والتجارب الفكرية المغايرة له، أو الوافدة عليه.

والمسلمات التي شكلت المرجعية العامة للفكر العربي الإسلامي هي مسلمات تنبع من التصور الشامل الذي أنشأه وبناه المصدر الأول لهذا الفكر القرآن الكريم، وكما يذكر ذلك د. سامي النشار فالحياة الإسلامية كلها ليست سوى التفسير القرآني: فمن النظر في قوانين القرآن العملية نشأ الفقه، ومن النظر فيه ككتاب يضع

[21]- وهيب اسطاسي جرجس، "**الفكر الفلسفي والاجتماعي**"، ص 47
[22]- "**المعجم الفلسفي**"، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ص 182
[23]- وهيب اسطاسي جرجس، "**الفكر الفلسفي والاجتماعي**"، ص 47
[24]- **معجم علم النفس والتربية**، 35/1، مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

الميتافيزيقا نشأ الكلام، و من النظر فيه ككتاب أخروي نشأ الزهد والتصوف والأخلاق. ومن النظر فيه كلغة إلهية نشأت علوم اللغة... إلخ، وتطور العلوم الإسلامية جميعها، إنما ينبغي أن يبحث في هذا النطاق، في النطاق القرآني نشأت، وفيه نضجت وترعرعت، وفيه تطورت وواجهت علوم الأمم، تؤيدها أو تنكرها في ضوئه.[25]

ويبين هذا أن القرآن الكريم هو الذي حدد كل المسلمات التي تؤطر نظرة الإنسان المسلم حول جوانب الحياة كلها، وتشكل نظرته للقضايا الوجودية الكبرى: المتصلة بالإنسان والكون، والخالق، ومصير الحياة ؛ كما تشمُل كذلك، كما يرى الدكتور سعيد شبار: قطعيات الدين، وقطعيات العقل وصريحه، والثابت من سُنن الكون والواقع التغييرية، والانطلاق من تراث الذات أولاً مع الانفتاح المَشروط على تراث الآخر ثانياً».[26]

ويلاحظ على الخطاب النهضوي بشقيه العلماني والإسلامي معا أنه بقي في كثير من تنظيراته واجتهاداته أسيرا لسلطات مرجعية، إما تراثية وإما مستوردة، وإذا كان الحديث عن "اغتراب العقل العربي" قد أصبح معتادا ومألوفا في حسنا المعاصر بحكم انتمائه إلى مرجعيات خارج "الذات"، فإن إثارة هذا الموضوع وبنفس الحجم من الاهتمام بالنسبة "للعقل الإسلامي الذي يعلن انتماءه لمرجعية إسلامية، قد يثير كثيرا من الردود، بل والاعتراضات، ذلك أننا لم نألف بعد أن نمارس نقدا علميا يتحرر من قيود الذات الآسرة لنعيش لحظتنا التاريخية.

فعلى الرغم من مكانة "الوحي" ودوره التأسيسي فى تحديد هذه المسلمات وفي تشكيل "الإطار المرجعي" ورسم "معالم الثقافة والفكر العربي الإسلامي". فإن دور "الاجتهاد العقلي" و"التراث العلمي الإنساني عامة" في مَلْءِ تفاصيلها، وتغذية تجلياتها، يظل دوراً بارزاً لا يتصور إغفاله أو إنكاره ولهذا تبقى "الثقافة الإسلامية" في نهاية المطاف ثقافة إنسانية، تندرج ضمن التجربة الثقافية للإنسانية عامة، وتتعرض لما تتعرض له سائر الثقافات، مِن مد وجزر، وانفتاح وانغلاق، وتحرر وتحجر. كما يظل المسلمون- عرفوا ذلك أو لم يعرفوه- جزءاً مِن التاريخ العام للإنسانية... ويعتبر فكرهم وسلوكهم جزءاً من تيار السلوك الإنساني العام، تحكمه ذات السُّنن والضوابط التى تحكم الناس في مسيرتهم عبر التاريخ.

غير أن هذا لا يعني انتفاء الخصوصية الحضارية والثقافية لدى الأمم والشعوب، وأن جزءا كبيرا من هذه الخصوصية تشكلها الأسس المرجعية التي تختص بها كل ثقافة وأمة عن غيرها من الأمم، وأن اختلاف المرجعيات وتباين الثقافات هو الذي يتأسس عليه الحوار والتثاقف المستمرين بين الثقافات والحضارات

[25]- سامي النشار، **"نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام"**، ج.1، ص 227

[26]- سعيد شبار، في مفهوم «المرجعية» واستعمالات الفكر العربي والإسلامي المعاصر»، مجلة «دراسات مصطلحية»، ع.2، ص 94

المختلفة. في أفق بناء مرجعية إنسانية جامعة قادرة على إخراج البشرية من كثير من أوجه الضنك والتخبط والحروب التي تعيشها.

ومن هذا المنطلق، تأتي أهمية ما يثيره سؤال الأسس المرجعية بالنسبة للأمة عامة والفكر المنبثق عنها خاصة، فسؤال الأسس المرجعية هو سؤال الهوية كما أنه السؤال الذي يبني ويحدد رؤية الأمة لذاتها وللعالم من حولها. و لا يمكن فصل هذا المحور عن مجمل القضايا والإشكالات المرتبطة بطبيعة التحديات التي واجهتها الأمة في العصر الحديث، وأهم تلكم الاشكالات، في نظري، هو التساؤل عن مدى نضج ما يمكن تسميته بالوضوح المنهجي والمفاهيمي، سواء لدى أقطاب تلك المشاريع النهضوية أو أولئك اللذين انتدبوا انفسهم فيما بعد لدراسة وتتبع منجزات تلك المشاريع في جوانبها المختلفة: فهما وتحليل وتقييما.

الوعي المنهجي ومظاهر الخلل في التعامل مع الأسس المرجعية للأمة وواقعه:

لعل أهم أسباب الخلل المنهجي في التعامل مع الأسس المرجعية للأمة ترجع إلى عاملين مهمين: التخلف الموروث عن عصور التراجع الحضاري الذي شكل ما سماه "مالك بن نبي بالبيئية "القابلة للاستعمار"؛ والتغريب والاستلاب الحضاري اللذان فرضتهما تحديات ظروف وسياقات احتكاك عالم المسلمين بالغرب.

وهذان العاملان أديا بالعالم العربي إلى اهتزاز ثقته في نظمه وأفكاره ومناهجه، فأحس جل مفكريه بضرورة القيام بعملية نقدية شاملة، تنطلق من تفكيك موروثه الثقافي ثم تطعيم وتحليل وإعادة بناء.

ويتمتَّع سؤال المنهج بحضورٍ وازن في مجال الفكر العربي الإسلامي الحديث؛ فقد حاول أغلب أقطاب الفكر الإسلامي الحديث توظيف معطيات المناهج الحديثة لتجديد وتطوير للفكر والخطاب الديني الإسلامي، وتحليل الظواهر الدينية بدراسة كل ما عرفته في تراثها الأصيل ومزجه بما هو حاصل في الواقع المعاصر. مواكبا للتطور الاجتماعي والتاريخي والنفسي والسياسي للعالم. ولا ينفك كل من تأمل جل كتابات الذين كتبوا حول هذه المرحلة الدقيقة من تاريخنا، من ملاحظة التشديد في على مكانة وأهمية المناهج للوصول إلى الحقيقة، باعتباره يمثل أدوات الفهم، ووسائل التحليل والتفكيك وإعادة البناء، وقد قام الخطاب النهضوي عموما في هذا المجال بدور مهم في الإسهام في الانخراط المعرفي والمنهجي للأمة في العصور الحديثة.

ويقودنا الحديث عن المناهج في الفكر العربي نحو مجالات غاية في التعقيد؛ فالمنهج عامة عبارة عن جملة من القواعد العامة التي تضبط الفكر الإنساني في تعامله مع قضايا المعرفة وموضوعاتها، وله قواعد خاصة بكل علم من العلوم. لكن النقد على مستوى المنهجي لا يقف عند حدود استحضار هذه المبادئ النظرية للمناهج، أو الخطوات الإجرائية اللازمة لها فحسب، بل يولي كذلك أهمية كبيرة للمنطلقات والمسلمات والتحيزات الكامنة في الذات الدارسة، وفي الأدوات المتوصل بها إلى تحديد الرؤية والملاحظة، وكذلك للعناصر التي

يمنحها العقل لنفسه أثناء التوظيف المنهجي. ولذا فإن بعض القواعد تتأسس على رؤية العالم التي يتبناها العلماء والباحثون، فيتصف المنهج- بالضرورة- بصفة تلك الرؤية وللتحيزات الكامنة فيها.

والإدراك الإنساني يتفاوت، ويختلف من شخص لآخر باختلاف التجربة النفسية والحضارية التي ينطلق منها. فالذات التي تحلل هي في نهاية المطاف جزء من الموضوع الذي تحلله، وهذا ما يسميه الدكتور عبد الوهاب المسيري ب"التحيز"؛ أي وجود مجموعة من القيم الكامنة المستترة فى النماذج المعرفية والوسائل والمناهج البحثية التى توجّه الباحث دون أن يشعر بها، وإن شعر بها وجدها لصيقة بالمنهج لدرجة يصعب معه التخلص منها. ويمكن القول إن هذه القيم كثيرًا ما تأخذ شكل نماذج أو صوراً مجازية، معرفية كامنة.

ويكشف عبد الوهاب المسيري مثلا في عدد من مؤلفاته عن كثير من أوجه الخلل المعرفي والمنهجي في بعض الكتابات العربية الحديثة، نظرا لعدم انتباه مؤلفيها لما حصل في مناهج التعامل مع العلوم الإنسانية عامة من تحيز للمركزية الغربية، حين تنبع من رؤية غربية للعالم. وينتقد ما يزعمه الإنسان الغربي ويعمل من أجله لأن يحول تجربته التاريخية إلى رؤية ونماذج ونظريات يضفي عليها صبغة "العالمية" و"ويبني عليها تفسير كل شيء في كل زمان وفي كل مكان"، وهذا ما يُطلق عليه التمركز حول الذات الغربية، وهذه هي الترجمة الدقيقة لعبارة Euro-centricity. والمركزية الأوربية هي: (الممارسة) الواعية أو غير الواعية، التي تركز على الاهتمامات الأوربية أو الغربية عموما في مجالات الثقافة والقيم على حساب باقي الثقافات.[27]

وكما يقول المفكر النمساوي ليوبولد فايس أو "محمد أسد" بعد إسلامه؛ فقد مال المفكرون والمؤرخون الأوربيون منذ عهد اليونان والرومان إلى أن يتبصروا تاريخ العالم من وجهة نظر التاريخ الأوربي والتجارب الثقافية الغربية.

أما المدنيات غير الغربية، فلا يعرف لها إلا من حيث إن لوجودها، أو لحركات خاصة فيها، تأثيرا مباشرا في مصائر الإنسان الغربي، وهكذا فإن تاريخ العالم وثقافاته العديدة لا يعدو أن يكون في أعين الغربيين تاريخا موسعا للغرب، وطبيعي أن النظر من هذه الزاوية الضيقة لا بد أن يوقع العين على مشهد مشوه غير سليم".

ويرى ليوبلود فايسان طبيعة المؤلفات والأفكار التي تطرح في الغرب حول القيم والحضارات الإنسانية الأخرى تجعل الإنسان الغربي يستسلم ويرضخ بسهولة، ويسر إلى الوهم الخادع الذي يصور أن الخبرات الثقافية الغربية، ليست أسمى من سائر الخبرات الثقافية في العالم كله فحسب، بل لا تتناسب معها على الإطلاق. وبالتالي، فإن طريقة الحياة الغربية هي "النموذج الصحيح" الوحيد الذي يمكن أن يتخذ مقياسا للحكم على سائر طرائق الحياة، لأن كل مفهوم ثقافي أو مؤسسة اجتماعية أو تقييم أدبي، يتعارض مع النموذج الغربي، إنما

[27]- هكذا تعرفها موسوعة ويكيبيديا Wikipedia أو الموسوعة الحرة المنشورة في شبكة الإنترنيت.

ينتمي حتما إلى درجة من الوجود أدنى وأحط. ومن هنا نرى أن الغربي -تمثلا باليونان والرومان- يعتقد أن جميع المدنيات ليست -أو لم تكن- إلا تجارب متعثرة في طريق الرقي، هذا الطريق الذي تتبعه الغرب بكثير من السداد والعصمة من الخطأ، أو أنها - في أفضل الأحوال- كما هي الحال في مسألة المدنيات السالفة التي سبقت مدنية الغرب الحديث مباشرة، ليست أكثر من فصول متتابعة في كتاب وحيد فريد آخره من غير شك، المدنية الغربية[28]. وهكذا ووفق هذه النظرة التي تتمحور حول "الذات الغربية، ينظر إلى أنه يمكن اختزال التاريخ البشري كله في الأقسام الآتية: تاريخ "قديم" و"وسيط" و"حديث".

وهذا التقسيم كما يرى ذلك أحد الغربيين أنفسهم، مثل شبنغلر في نقده للمسار الذي اتخذه الغرب. "منهج تافه، سقيم، غير ذي معنى إلى حد لا يصدقه عقل، فهو منهج لا يحدد فقط حالة التاريخ، بل ما هو أسوأ من هذا، إنه يعالج رقعة أوربا الغربية بوصفها قطبا ثابتا وبقعة فريدة من نوعها، اختيرت على سطح الأرض دون ما سبب مفضل، بينما يجعل تواريخ عظمى وحضارات جبارة غارقة في القدم تدور حول هذا القطب بكل بساطة وتواضع.[29]

وبهذا أعادت أوربا دوائرها العلمية صياغة التاريخ ليوافق رؤيتها، ولهذا نراها تبنت تاريخ العلم ونظرياته وفلسفاته وتصنيفاته، وبنت مناهجه وفق منظورها الفكري، وحصرت دور المسلمينَ - فقط -في حفظ التراث اليوناني، وترجمته – فقط- بدون أن يتدخل المسلمون فيه بالنقد والتوجيه كما بين ذلك بعض المنصفين من نقادهم.

لهذا يمكن القول، إن جل الكتابات الإسلامية التي برزت منذ عصر النهضة قد انتبهت لخطورة ما قامت به تلك الدوائر الغربية الاستشراقية أو التابعة لها، وواجهت بعض ما ترتب عنها من أوجه الخلل في التصورات والمناهج والمفاهيم، غير أن تلك الكتابات لم تكن دائما في مستوى كشف وبناء مناهج بديلة وأصيلة قادرة على تجاوز أوجه الخلل والقصور اللذان عرفهما هذا الجانب المعرفي المهم.

وباستثناء بعض الاجتهادات الإسلامية الحديثة التي حاولت إنتاج خطاب منهجي بديل التي استفادت من اطلاع مهم على الأدوات المنهجية الغربية، وانتبهت إلى ما يثيره نقلها وترجمتها حرفيا وإسقاطها على وقائع وظواهر خارج السياق الثقافي الذي نشأت فيه أول مرة وتطورت بتطور تجربته الثقافية والحضارية.

[28]- محمد أسد، **"الطريق إلى مكة"**، ترجمة عفيف البعلبكي، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، 1956 م، ص ص 17-18

[29]- أزوالد شبنغلر، **"تدهور الحضارة الغربية"**، ترجمة أحمد الشيباني، بيروت، دار مكتبة الحياة 1964، ج1، ص ص 60-61

ولعل كتابات الدكتور إسماعيل الفروقي الذي بدأه حول مشروع إسلامية المعرفة[30]، حيث نبه إلى أن أزمة الأمة تكمن في فكرها وفي منهج تفكيرها، وما يتفرع عن ذلك من نظم التربية والتعليم التي تكرس الاغتراب والابتعاد عن الإسلام وتراثه ونمطه في الحياة. وقد أسهمت مدرسة إسلامية المعرفة بشكل كبير في تشكيل بداية التوجه النقدي على هذا المستوى المنهجي، بغض النظر عن قيمته وأهميته فقد نبه إلى أن ما عليه مناهج العلوم الإنسانية في صورتها الحالية، يرتبط إلى حد كبير بالتاريخ الثقافي للغرب، ومن ثم فهو يعبر عن خصوصياته ومشكلاته الفكرية، ويرى أن تسرب هذه المناهج إلى جامعات ومراكز البحث العلمي في العالم الإسلامي أمر فرضته الحاجة، نتيجة الفراغ العلمي مع شدة الحاجة إلى التجديد...

وينتقد هذا التيار طريقة تعامل العقل العربي الإسلامي مع المعرفة، حيث يقول بأنه يتأرجح ما بين التعامل النمطي التقليدي مع التراث وبين التوجه التقليدي نحو الغرب، ويركز دعاة هذا التيار على أن مفتاح البناء المنهاجي السديد هو استعادة منهاجية الجمع بين قراءة الوحي وقراءة الكون كشرط لتحرير الخطاب الإسلامي الحديث من التفتت، ومن غياب الهدف الجامع. ويأخذون على الفكر الإسلامي الحديث معاناته من الغموض الذي جعله يعجز عن تقديم مشروع حضاري إنساني واضح، ويعكس بجلاء الأسس المرجعية الإسلامية.

كما انتقدوا قصور المنهج التقليدي، وكشفوا عجزه عن استيعاب مستجدات العصر وتناقضات الواقع، كما بينوا عناصر الجمود والتكلس في تعامل التيار التقليدي مع مصادره المرجعية؛ إذ بقي الفقه الإسلامي، مثلا، نظاما ودائرة مغلقة، ولم يستطع الفقهاء بمناهجهم المعتادة التقليدية أن يسايروا تحديات المنافسة الحضارية في العلم والتكنولوجيا. كما انتقدوا كذلك التيار التقليدي الذي سلم عقله ووجدانه للغرب من دون القيام بأية جهود لإبداع بدائل منهجية ومنظومات معرفية أصيلة ومستقلة. وقد استثمر أصحاب مدخل إسلامية المعرفة العتاد المنهجي والمعرفي اللذان انتهت إلى تحصيلهما التجربة الغربية، بما في ذلك ما قدمته مدارس النقد "الإبستمولوجية" الغربية نفسها التي بينت وكشفت خطأ الكثير من تلك المسلمات التي بنت عليها بعض النظريات الغربية أطروحاتها على مستوى العلوم الطبيعية[31] أو الإنسانية.

وبما أن هذا المشروع قد حظي بكثير من الدراسات، وتعرض لكثير من النقد من خصومه، ولكثير من أوجه التقويم والتسديد من قبل متبنيه، فإنني لن أتوقف عنده كثيرا، لأن الذي يهمني أكثر في هذا المقام هو ما أحدثه هذا التيار عامة تيار إسلامية المعرفة من أثر بالغ في التنبيه إلى أهمية قضايا المنهج والمنهجية وصلتها

[30]- انظر: اسماعيل راجي الفاروقي، **"العلوم الطبيعية والاجتماعية من وجهة النظر الاسلامية"**، ترجمة عبد الحميد الخريبي - نشر شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع – جامعة الملك عبد العزيز - السعودية، ط.1/ 1984

[31]- مثل ظهور الخلية في مجال البيولوجيا مثلا، وظهور نظرية المجموعات في الجبر والهندسات اللا أوقليدية في الرياضيات والنظرية الكوانطية والنظرية التموّجية والنظرية النسبية في الفيزياء... إلخ، كل ذلك أدى إلى إحداث قطيعة إبستمولوجية بين العلوم أو العقلانية الكلاسيكية من جهة، والعلوم أو العقلانية المعاصرة من جهة ثانية. فأصبحت العقلانية أكثر انفتاحا نتيجة تجاوزها لتلك المبادئ التي تحكم العقل: الهوية وعدم التناقض والثالث المرفوع والسببية. انظر على سبيل المثال: عمار الطالبي، مفهوم العلم، ص 24

بالأسس المرجعية التي تنحدر منها، وكل المؤلفات المهمة التي أصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي[32] تناولت قضايا وإشكالات منهجية مهمة، كما أقام هذا المعهد مؤتمرات علمية عديدة، تخصص جانب مهم منها في قضايا المنهج والمفاهيم والحضارة عموما.

وبالإضافة لهذه المحاولا ت المنهجية المهة التي قام بها تيار إسلامية المعرفة، هناك مفكرون آخرون عديدون كونوا بكتاباتهم العديدة وعيا منهجيا أصيلا وحرا في الثقافة العربية المعاصرة، تيارا جمع بين الأصالة والمعاصرة، وتسلحوا بعتاد منهجي واسع، في إطار رؤية معرفية يتكامل فيها جوهر الأسس المرجعية وروحها مع متطلبات الواقع وحاجيات العصر.

ويمكن أن أذكر ضمن جهود هؤلاء المفكرين ما قدمه الدكتور طه عبد الرحمن، والذي حاول تقديم رؤية منهجية نقدية لكثير من أوجه الخلل المنهجي والمعرفي التي عرفتها كثير من المشاريع الفكرية التي عرفتها الساحة الثقافية العربية؛ ففي بعض الأحيان ـ كما يقول ـ قد تجد أنّ المشروع متناسق يقدّم حلاً لوضع فكري مأزوم، لكنّك عندما تأخذ هذا المشروع نحو تفاصيل المشكلات القائمة، فإنّك تواجه مشاكل كبيرة جدّاً؛ لأنّ الحديث في القواعد وحلّ المشكلة في أفقها لا يعني أنّ المشكلة قد حلّت في التفاصيل، فإنّ للتفاصيل خواصّها أيضاً".[33]

ويقول إنه "عندما يتكلّم مفكّرنا العربي والإسلامي في القواعد والنظريات العامّة وقضايا المنهج، فهذا لا يعني أنّه حفظ خصوصيات التفاصيل، بل هو في الحقيقة قام بهدرها، وهذا ما قد يؤدّي في كثير من الأحيان إلى فشل عمليات تطبيق المقولات الكبرى على أرض الواقع الذي لا يعرف سوى التفاصيل".[34]

وينتقد الدكتور طه عبد الرحمن مسالك أولئك اللذين يتعاملون مع مصادر اللأمة وأسسها ويقومون بدراسة التراث العربي الإسلامي وتقويمه، واصفا المعرفة التي يحملونها بأنها مناهج تجزيئية لا تملك الرؤية الشمولية التي تتسم بها الأسس المرجعية الإسلامية، لذا فإن مناهجهم "ليست من صنف المعرفة التي تولدت بها مضامين التراث الإسلامي العربي، وتكونت بها مقاصده، لأن المعرفة الإسلامية تصل العقل بالغيب، والعلم بالعمل. أما الأخرى، فهي تقطع العقل عن الغيب، وتفصل بين العلم والعمل، وبالتالي فهي لا تفيد في تقويمه ولا تعين على تصحيح مساره.

---

[32]ـ أصدر المعهد العالمي للفكر الاسلامي عدة مؤلفات حول قضايا المنهج، كما عملت على طبع أطاريح ورسائل جامعية عديدة حول المناهج في مجالات العلوم الإنسانية، كما قام بإصدار مجلة يحمل عنوانها نفس الهم المعرفي الذي يعمل من أجله هذا التيار مجلة "المسلم المعاصر" و"مجلة إسلامية المعرفة" تتناول قضايا فكر النهضة وقضايا المنهج عند المفكرين المسلمين قديما وحديثا.

[33]ـ انظر الحوار الذي أجراه د. طه عبد الرحمن مع "موقع الحوار المتمدن" الإلكتروني أجر ى الحوار وأعدّه: الدكتور نور الدين علوش.

[34]ـ المرجع نفسه.

كما يرى أن أدوات البحث التي اصطنعها المحدثون من مفاهيم ومناهج، ونظريات، وتوسلوا بها في نقد التراث لا تستوفي لشروط النظر العلمي الصحيح، وهو يرجع السبب في ذلك إلى عدم امتلاكهم لناصية تقنيات تلك المناهج، وعدم قدرتهم على التفنن في استعمالها، يقول: "الواقع أن التمكن من هذه المناهج لم يكن من نصيبهم، ولا التفنن في استخدامها كان طوع أيديهم، ولا ينكر ذلك إلا من هو دونهم تمكنا في العلم، ودونهم تفننا في العمل، ولا أدل على ذلك من أنهم عاجزون عن الاستقلال عن تلك المناهج، والإتيان بما يقابلها، ولو على نمطها"[35]. يرى الدكتور طه عبد الرحمن، أن مسالك أولئك في تقويم التراث، ودراسته قد وقعت فيما يسميه ب "التقويم التجزيئي"، لأنه يغلب عليه طابع الاشتغال بمضامين النص التراثي، ويغفل الوسائل اللغوية، والمنطقية التي أنشئت بها هذه المضامين، والتي يسميها ب"الآليات الإنتاجية" أو "الأصلية" في حين يسمي تلك الآليات المنقولة ب "الآليات الاستهلاكية" أو "الفرعية".[36]

ورؤية طه عبد الرحمن النقدية رؤية متميزة وعميقة تسعى لتقديم الجديد في مناهج البحث، وتدعو إلى تجاوز أشكال القراءات الإيديولوجية الغربية المنبهرة بالآلة النقدية الغربية، وتقدم أسسا منهجية دقيقة لبناء منهجية علمية أصيلة ومناسبة لفهم وتحليل أسسنا المرجعية وبيان أنسب الطرائق المنهجية للتعامل مع تراثنا والتراث الانساني عامة.

ويصعب تتبع كل عناصر رؤية الدكتور طه عبد الرحمن النقدية للمناهج التي اعتمدها أصحاب المشاريع الكبرى في الثقافة العربية المعاصرة، وبيان ما أصله من فكر نقدي ومنهجي بأدوات مأصولة ومنقولة، يحتاج في نظري أن يفرد لوحده ببحث مستقل، ودراسة خاصة تتبع تطور ما يمكن تسميته ب"النظرية النقدية"عند طه عبد الرحمن؛ خاصة وأن هذه النظرية ما زالت تعرف إضافات مستمرة مهمة، تُغني النظرية وتثريها وتضيف إليها أفكارا ورؤى جديدة مع كل إصدار من إصداراته المهمة.

ومثل هذا يمكن أن نقوله عن مفكرين آخرين كان لهم بدورهم أثر قوي على مسار التفكير النقدي المنهجي للثقافة العربية الإسلامية من أمثال مالك بن نبي، ومنير شفيق، وطه جابر العلواني، وأبو القاسم حاج حمد، ومحمد عابد الجابري وغيرهم، ممن لا يسع الوقت لتقديم جهودهم فبلورة التفكير النقدي والمنهجي في مجال الفكر العربي الإسلامي المعاصر.

[35]- طه عبد الرحمن، **تجديد المنهج في تقويم التراث**، ص 11، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية 2005

[36]- المصدر نفسه.

وبما أن الرؤية **المنهجية لا تتأسس إلا من خلال المفاهيم التي تمثل اللبنات التي تحدد الرؤية وتؤسس التوجه المعرفي والمنهجي**، فإن أي عمل منهاجي يتأسس قوامه أولا من خلال تأسيس وتأصيل للمفاهيم".[37]

التفكير النقدي ومشكلة تحرير المفاهيم وإعادة بنائها:

وضوح الأسس المرجعية لمنظومة معرفية ما يتحقق بداية بوضوح المفاهيم التي تحمل حقائق ومرتكزات تلك المرجعية إلى الأذهان وفي الواقع. لذا وجب تحديد (المفاهيم) التي يقع بها الحوار التواصل بين المنتسبين لأسس مرجعية واحدة وبينهم وبين غيرهم ثانية، وبيان دلالاتها بدقة ووضوح يرفعان عنها الغموض والاشتباه، تجنبا لكل نزا ع أو اضطراب في الرؤية والنظر. وقد انتبه علماء الإسلام ومفكروه منذ القدم إلى أهمية بناء المفاهيم وتحقيق معاني الألفاظ، واعتبروا ذلك أول ما ينبغي الاهتمام به عند دراسة كل علم من العلوم، لأن المفاهيم هي مفاتح العلوم ومرايا الحضارات ولقد صدق ابن عربي لماّ قال: من عرف حقائق الأسماء أعطيت له مفاتيح العلوم. "كذلك فإن ما نعرفه لا بد أن يصل إلينا من خلال وسيط لغوي في صورة مفاهيم تعكس الواقع أو تحوله إلى مادة قابلة للفهم، بل إن المعرفة التي تم تحويلها كميا، لا بد أن يعبر عنها في النهاية بلغة طبيعية في صورة مفاهيم ومصطلحات وألفاظ.[38]

فالمفاهيم ليست مجرد كلمات عادية، يمكن أن تفسر باستحضار كلمات أخرى مرادفة لها أو مشتقة منها، بل هي ألفاظ تطوي بحروفها معاني، ودلالات وخلفيات كثيرة، تتجاوز البناء اللفظي للكلمة، وتتخطى الجذر اللغوي لها، لتعكس كوامن فلسفة الأمة، ودفائن مرجعيتها وكل ما استبطنته ذاكرتها المعرفية.[39]

لهذا تحتل المفاهيم موقع الحجر الأساس في البناء المعرفي لأية منظومة حضارية؛ عليها تقوم التصورات وعنها تتولد القيم. وكل الحضارات القديمة منها والحديثة، رسخت وجودها الفكري حين حددت مفاهيمها، ونحتت مصطلحاتها. ومن هنا أصبح تحديد المصطلح ضرورة حضارية يكتسب بها الفكر صيرورته، وتتحدد أهميته في تاريخ الأفكار. وازدادت العناية بالمفاهيم والمصطلحات في العصور الحديثة، بسبب الطفرة الحاصلة في التطورات العلمية والمنهجية.

والمفاهيم هي المدخل للمعرفة والمدخل إلى ضبط السلوك المعرفي للإنسان؛ وتأسيساً على هذا، فإن من البديهيات أن أي تغيير لواقع أمة من الأمم وإعادة بنائها الحضاري وتجديد ثقة أبنائها بهويتهم وأسسهم المؤسسة لثقافتهم، إنما يبدأ بتصحيح المفاهيم وإعادة بنائها وفق ما تقتضيه تلك الأسس البانية للأمة لتنسجم مع تاريخها

---

[37]- انظر تفصيل هذا الرأي، منى عبد المنعم أبو الفضل: **نحو منهاجية للتعامل مع مصادر التنظير الإسلامي بين المقدمات والمقومات**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط.1، 1996

[38] - المرجع نفسه، ص 226-227، بتصرف.

[39]- نصر، محمد عارف، **"الحضارة – الثقافة – المدنية، دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم"**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، ط.2، 1415هـ - 1994م، (من تصدير للكتاب لطه جابر العلواني)، ص 7

وحضارتها. وهذا ما انتبه إليه بعض الناس منذ زمن بعيد، حيث نجد الحكيم كونفوشيوس (معلم الصين قديما) في نظريته الموسومة بنظرية المعنى واللفظ، يقول: من لا يعرف معنى الكلمات لا يعرف معنى الإنسان، وسأله تلميذه ذات يوم عن أي شيء يبدأ به فقال له: أول ما تبدأ به تحديد أسماء الأشياء، لأنه إذا لم تكن الأسماء صحيحة لا يوافق الكلام حقائق الأشياء، وإن لم يكن الكلام موافقا للحقائق وقع الخلط في اللغة وفسدت الأمور. فبدون تصحيح المفاهيم، وتحديد محتوى الأسماء تفقد الكلمات معانيها ومضامينها ويزول سلطانها". ومن لا يسمي الأشياء، يفقد السيطرة على الواقع والمقدرة على التعامل معه بكفاءة.

و(المفاهيم) هي أبنية عقلية، أو تجريدات يمكن تسخيرها في تصنيف الأشياء وموضوعات كل حقول المعرفة، والنشاط الإنساني، كما أنها: عبارة عن مجموعة الصفات، والخصائص التي تحدد الموضوعات التي ينطبق عليها اللفظ تحديدا يكفي لتمييزها عن الموضوعات الأخرى[40]. و"المفاهيم" تتضمن عادة جملة من الأفكار والنظريات وتختزل جملة من الخبرات والتجارب الحضارية التي يختزنها أبناء الأمة في ذاكرتهم. فالمفاهيم بهذا الاعتبار أشبه بأوعية معرفية جامعة، تحمل من خصائص الكائن الحي أنها ذات هوية كاملة قد تحمل تاريخ ولادتها، وسيرورتها وتطورها الدلالي، وما قد يعترضها أثناء سيرورتها من عوامل الصحة أو المرض، وعمليات شحن وتفريغ وتخلية وتحلية، واستحضار تاريخية – المفهوم – يعني إدراجه في الواقع التاريخي بكل أبعاده وضغوطاته وإكراهاته. ولا شك في أن إثبات تاريخية الفكر، أي فكر، تأكيد لنسبيته. ومن ثم يمكن مقاربته مقاربة نقدية منهجية.

وكل العلوم تعتمد على المفاهيم، فهي الأفكار التي حملت أسماء، وهي التي تحدد السؤال الذي تؤسس عليه النظريات؛ فالعلم دائما يبدأ بتشكيل المفاهيم التي تصف العالم، إذ إنه قبل شرح الظواهر لا بد من وصفها؛ فالسؤال لماذا؟ لا بد أن يأتي بعد... ماذا؟ الذي يجاب عليه من خلال إطار مفاهيمي، يشخص، ويصف، وينظم، ويقارن، ويكمم بالألفاظ أية ظاهرة. والمفاهيم بحاجة إلى نسق يضم بعضها إلى بعض، وتمثل المصطلحات أطراً تصورية وتعبيرية للمفاهيم، وكلما تعلق الأمر بالبحث في مجال الفكر ومجال العلوم الاجتماعية والإنسانية عامة، كلما كان تحديد المفاهيم وضبطها أمرا ضروريا أكثر، لأن هذه المجالات، والحقول المعرفية لم تبلغ بعد درجة وضع "مصطلحات" و"مفاهيم" دقيقة خاصة بها، يتواضع على مصادقها الجميع، لأنها تظل عرضة للتحيزات والإيديولوجيات الكامنة والظاهرة إلى درجة فقدانها أحيانا لبعض لدلالاتها الأصلية الحقيقية. وتبين أن التحكم في المصطلحات هو تحكُّمٌ في المعرفة التي يُراد تبليغُها، وأن المناهج العلمية لا تتحقق إلا بضبط المصطلحات[41]، وترجع الخلافات العلمية في قدر مهم منها إلى اختلاف الناس حول معاني الألفاظ.

---

[40]- إبراهيم بيومي وآخرون، بناء المفاهيم دراسة معرفية ونماذج تطبيقية، – سلسلة المفاهيم والمصطلحات – المعهد العالي للفكر الإسلامي 1418هـ، القاهرة، ج1، ص 31

[41]- أصبح المصطلح في العصر الحاضر موضوع علم مستقل يدعى علم المصطلح الذي يدرس علمياً المفاهيم والمصطلحات المستعملة في لغة الاختصاص، والمصطلحية (terminology) كعلم يعنى بصياغة المصطلح وتحديده أو صناعته.

وتبرز قضية المفاهيم والمصطلحات في كل صراع وتحتل أهمية خاصة في الإعلام عنه، وأية غفلة عن أهميتها وأي خطأ في التعامل معها قد يكون له نتائج وخيمة. لذا وجب التفريق بين المفاهيم الدقيقة والواضحة وبين المفاهيم الغامضة والمضللة، و"الفرق بين المفهوم الواضح والمفهوم الغامض كالفرق بين خريطة واضحة المعالم لبلد معين يصطحبها المسافر عند سفره، وورقة خط عليها طفل مجموعة خطوط لا تدل على شيء، وقيل للمسافر هذه خريطة، فانظر كيف أن المفهوم الواضح الذي ينطوي - مثل الخريطة الواضحة- على معان جلية وقيم ومبادئ واضحة يدفع إلى تقدم المعرفة عند ربطه بمفاهيم أخرى في نسق، أو يهدي إلى سواء السبيل عندما يسلك المرء على أساسه. أما المفهوم الغامض، فهو مثل الورقة التي خط عليها الطفل خطوطا غامضة، فإنه إذا دخل في نسق أفسد نظامه، وعلاقاته مما يؤدي إلى تراجع معرفي. وإذا وجه سلوكا لشخص أضله، لأنه لا يهدي إلى شيء ولا يدل على شيء ـ[42]

المفاهيم ـ تحريرها من المصادرات المختلفة وإعادة بنائها:

لعله من غير الممكن أن يتحقق تحرير الفكر الإسلامي من كثير من التحيزات المخالفة لمرجعيته ما لم يتمكن أولا من "توليد المفاهيم وبناء "المصطلحات" ونحت النماذج التي تعبر عن حقيقة، وتميز الأصول المؤسسة لإطاره المرجعي. فالمفاهيم كما أنها تستبطن توجهات ومحددات الأطر المرجعية التي تصد ر عنها، فإنها كذلك تقوم بإعادة بناء تصورات جديدة لها. فاستيضاح المفاهيم ضروري لمن يرغب في فهم مجتمع من المجتمعات، أو دور من أدوار التاريخ البشري ويبتغي النفاذ إلى لبه، واكتناه المبادئ والروابط، التي تنظم حياته والعوامل التي تحركه. وهذا الاستيضاح نفسه ضروري لأبناء ذلك المجتمع، أو الدور التاريخي بالذات، لأنه يكشف لهم عن غاياتهم ووسائلهم واتجاهاتهم، ويمكنهم من تدبرها، ويعينهم على معرفة ما تتضمنه من صواب، أو خطأ، ومن خير أو شر، وبهذا كله يتدرجون في سبل السلوك الواعي ويتجنبون المزالق والمخاطر، ويستثمرون جهودهم أفضل استثمار. ولا توجد لغة إنسانية واحدة تحتوي على كل المفردات الممكنة للتعبير عن الواقع بكل مكوناته؛ أي أنه لا بد من الاختيار، كما ثبت أن كل مفهوم مرتبط باللغة التي ينحدر منها وببيئتها الحضارية إلى حد كبير، ولهذا تكون لديه كفاءة أكثر في التعبير عن لغته وحضارته التي ينتسب إليها. وتختلف أشكال التعبير المفاهيمي باختلاف الازمنة واللغات والأقوام والجماعات. وأي حوار، أو تواصل، أو تفاهم، لا يمكن حصوله مادام كل طرف ينطلق من مفاهيم مغايرة في مضامينها وحمولاتها المعرفية لمضامين ودلالات مفاهيم الطرف الثاني. وعدم تحديد هذه المفاهيم وعدم وضوحها، يفقد الكلمات ماهيتها ودورها كوسيلة للتواصل والحوار ونقل المعاني والدلالات، كما يؤدي كذلك إلى اختلاف معاني ودلالات الكلمات بحسب استعمال كل دارس لها، ومن ثم، فإن أطراف الحوار لا يقفون على أرضية واحدة، وإنما كل واحد منهم تقع على ذهنه ظلال للمفهوم مخالفة لتلك التي وقعت على ذهن الطرف الآخر. يقول ابن حزم الظاهري: "والأصل

[42]ـ صلاح إسماعيل، مقال: دراسة المفاهيم من زاوية فلسفية، مجلة إسلامية المعرفة، السنة 2، العدد 8، 1417/1997 هـ.

في كل بلاء، وعماء، وتخليط، وفساد، اختلاط أسماء، ووقوع اسم واحد على معان كثيرة فيخبر المخبر بذلك الاسم، وهو يريد أحد المعاني تحته، فيجعله السامع على غير ذلك المعنى الذي أراد المخبر، فيقع البلاء والإشكال وهذا في الشريعة أضر شيء وأشده هلاكا لمن اعتقد الباطل إلا من وفقه الله تعالى[43]- ولهذا كان علماؤنا السابقون يحرصون على (تحرير موضع النزاع) في المناظرات والخلافيات، حتى لا تنصب معركة على غير شيء. والدال لا يشير إلى مدلول خارجي فحسب، وإنما يحتوي على وجهة نظر وتصورات من نحته. ويزيد الأمر تعقيداً إذا كانت الدوال ذات طابع عقائدي، وقد قيل" أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء[44]..

ويعتبر المفهوم المعبر الأول عن هوية الأمة والكاشف لذاتها وأصالتها؛ و"أول ما تصاب به الأمم في أطوار تراجعها الفكري والمعرفي والثقافي مفاهيمها، وأول ما يتأثر بعمليات الصراع الفكري والثقافي مفاهيمها كذلك[45]. لهذا، فإن نقل المصطلحات وترجمتها حرفيا في العلوم الإنسانية تظل عملية محفوفة بالمخاطر، ولعل أخطر مشكلة تلحق "مفاهيم" منظومة معرفية وثقافية معينة، تنشأ حينما تجتاحها مفاهيم ومصطلحات منظومات معرفية أخرى مغايرة، تختلف عنها ثقافة، ولغة وعقيدة ونمط حياة ومستوى حضارة. وكل مصطلح قد تشكل في سياق حضاري فريد، له لغته المعجمية وخريطته الثقافية والحضارية الخاصة. وقد حدث هذا لأمتنا على امتداد القرون الثلاثة الماضية، خاصة إبان الاحتكاك الغربي بديار المسلمين وما تبع ذلك من تبعية فكرية وحضارية أفرغت ألفاظ عربية إسلامية كثيرة من مضامينها الحضارية الأصيلة، لتحل محلها مضامين أخرى مغايرة تعبر عن روح وتصورات الحضارة الغربية الغازية، خاصة أنه خلال هذه المرحلة "حدثت حركة ترجمة واسعة، تم فيها اختيار كلمات عربية نزعت من جذورها وسياقها، لتعبر عن ألفاظ أجنبية جاءت بعد ذلك بكل دلالاتها وجذورها وجوانبها المنظورة وغير المنظورة لتزيح المعنى العربي جانبا وتحل محله تماما، فلا يبقى منه غير الوعاء الخارجي (اللفظ). وبهذا الغزو المفاهيمي والفكري الغربي للبلاد الإسلامية تم تشويه دلالات عدة مفاهيم أصيلة، بل وأفرغت بالتدريج من محتواها الأصلي، لتحمل دلالات أخرى وافدة تعبر عن مسلمات وثقافة حضارة الغرب. علما أن استنبات المفاهيم في بيئة حضارية مغايرة لبيئتها الأصلية، لا يؤتي دائما نفس الثمار، فكل بيئة ثقافية وحضارية لها معالمها وأسسها وتضاريسها الخاصة بها؛ وهذا ما سماه علي شريعتي ب"جغرافية الكلام". ولهذا، فإن معرفة تاريخ وتطورات المصطلح، غاية في الأهمية، لأنه يستحيل فك ارتباطات المصطلح بمفاهيمها وأسسها المرجعية، بمعنى أن كل مصطلح له دوافعه وظروفه وسياقاته

[43]- ابن حزم الظاهري، **"الإحكام في أصول الأحكام"**، تحقيق لجنة من العلماء، دار الجيل – بيروت، م3- ج8، ص 464

[44]- "ومن كان متكلما بالمعقول الصرف لم يتقيد بلفظ، بل يجرد المعنى بأية عبارة دلت عليه: وأرباب المقالات تلقوا عن أسلافهم مقالات بألفاظ لهم، منها ما كان أعجميا، فعربت كما عربت ألفاظ اليونان، والهنود والفرس، وقد يكون المترجم صحيح الترجمة، وقد لا يكون صحيح الترجمة، ومنها ما هو عربي، ونحن إنما نخاطب الأمم بلغتنا العربية".انظر:

عبد الحليم ابن تيمية، **"منهاج السنة النبوية"**، المجلد 1، ج1، ص 182، هامش "بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول"، الطبعة الأولى بدون تاريخ.

[45]- طه جابر العلواني، تقديم كتاب **"الحضارة-الثقافة-المدنية"** لنصر محمد عارف، ص 8

الخاصة به. وعندما تصبح المفاهيم الغربية معيارا قياسيا تفهم به، ومن خلاله، كل الظواهر الاجتماعية والاقتصادية الثقافية وحتى الدينية في البيئة المسلمة، فإن ذلك يؤدي لا محالة إلى التحيز لأسس مرجعية مغايرة لأسسنا ومسلماتنا. وتزداد هذه الخطورة حين يضع الذي نحت المصطلح نفسه في المركز، ويُنزل غيره على الهامش، ويعيد ترتيب التفاصيل لتتفق مع رؤيته الاستعلائية ونظريته المتمحورة حول ذاته.

وبهذا يكون الذي حدث للأمة بعد أن أخذت تنقل عن الغرب نقلا لا تقيده أية ضوابط ما سماه أحد المفكرين المحدثين بـــ"الحراك المفهومي" ومؤداه أن بعض المفاهيم تتبادل المراكز فيما بينها، حيث يصبح المفهوم الفرعي مفهوما أصليا يحتل مركز الاهتمام، ويحدث ذلك بقصد في أحيان كثيرة، ويكون نتيجة من النتائج المترتبة على الغزو الثقافي. أو بغير قصد في أحيان قليلة، ويكون نتيجة للظروف الاجتماعية والاقتصادية غير المناسبة التي تمر بها الحضارات في حالة ضعفها.[46]

ويرى صلاح إسماعيل بأن: الذي حدث للأمة بعد أن أخذت تنقل عن الغرب نقلا لا تقيده الضوابط الشرعية، هو أن مفاهيمها تبادلت المراكز فيما بينها، فبعد أن كان مفهوم "العقيدة" هو المفهوم الأصلي والجذر في شجرة المفاهيم،... أصبح أحد فروع الشجرة وصار ينظر إليه لا على أنه الأصل أو الجذر، بل أصبح الفرد هو المحور وكل ما عداه لا قيمة له. وكل ما نعاني منه الآن هو طراز غريب من النزعة الفردية، نشأت نتيجة تبني فلسفات، مثل الوجودية الملحدة عند سارتر وغيره من الوجوديين الذين ترجمت معظم أعمالهم إلى العربية دون نقد أو تمحيص، فهذه الفلسفة ترفع الفرد إلى أعلى عليين، حيث تضعه مكان الله!![47]. وهذا يبين مدى خطورة نقل المفاهيم من بيئة حضارية إلى أخرى من دون إخضاعها لكثير من الفحص والتدقيق.

وقد أولى جل المفكرين العرب المحدثين عناية كبيرة لمسألة "المفاهيم" و"المصطلحات" واعتبروا تحصين هذه المفاهيم وتفعيل التفكير النقدي لتحريرها من التحيزات الكامنة فيها، وكشف ما يمكن أن يلحقها من التحريف أو التشويه، منطلقا ضروريا لتحصين "الذات" ومنع ذوبانها، وضياع تميزها، بسبب ذوبانها في مفاهيم ومصطلحات دخيلة على تراثها وغريبة عن عقيدتها. لهذا نجد الدكتور طه عبد الرحمن مثلا يلح في كثير من محاضراته أننا" نحتاج حقا إلى إعادة النظر في كل مفاهيم التي نتلقاها، لأننا – نستخدمها بوجوهها الأصلية في حين أن واقعنا لا يطابق على هذه الوجوه، فلذلك ينبغي إعادة النظر فيها، ويلخص نظرته عن ذلك في أحد مقابلاته الصحفية بقوله: "أقول كل مفهوم منقول إلينا نعترض عليه حتى يقوم الدليل على صحته، وكل مفهوم منقول إلينا نعترض عليه، يعني ننتقده حتى يقوم الدليل على صحته، وكل مفهوم من عندنا مقبول حتى يقوم الدليل على بطلانه، لأن المفهوم المنقول هو مفصول عنا ورَدَ علينا في حين أن المفهوم من عندنا هو

[46]- د.صلاح إسماعيل، مقال: دراسة المفاهيم من زاوية فلسفية مجلة إسلامية المعرفة، مرجع سابق.

[47]- المرجع نفسه.

موصول بنا ونحياه، فنحن نحيا به إلى أن يتبين أنه لم يعد صالحا فنتركه، ونضع مكانه غيره في حين أن ما ورد علينا ينبغي دائما نجري عليه النقد، لا للتنقيص منه، ننتقده لامتحانه واختبار مدى مطابقته لواقعنا ومتطلبات وجودنا، وليس معنى النقد هنا القدح والإبطال، المقصود فقط للتحقق مما يرد علينا وكسب الملكة في ضبط المفاهيم عن طريق ما نأخذه عن الآخرين."

ومن هذه المفاهيم التي لحقها هذا التشويه- وشحنت بدلالات أخرى غربية مغايرة، مفهوم "الحضارة" الذي كثيرا ما يقدم على أنه انعكاس لواقع الغرب وحالته الراهنة، وأن كل عملية تستهدف تحقيق تقدم حضاري لا يمكن إلا أن تكون امتدادا ونقلا للتجربة الأوربية: لتاريخها وتراثها وآدابها...وكذلك مصطلح 'العالمية' الذي دأب الغرب على احتكاره، حتى أصبح هذا اللفظ، وكأنه لا ينصرف إلا إليه وحده... وأن كل ما هو غربي يعتبر وحده عالميا، وكأن العالم مقتصر عليه؛ حتى ظن الإنسان الغربي أن أوروبا هي العالم وما عدا ذلك فأسواق ومستعمرات ؛ كذلك مصطلح 'الرأي العام العالمي" والمقصود به غالبا رأي العالم الغربي.

أما مفهوم "الأمة"، فقد ناله كل ما نال الجماعة التي تنتسب إليه من تمزيق، وتضليل، وتجهيل وتفقير، حتى صار هذا المفهوم الجامع لجماعة المسلمين، يعني مجرد رابطة، مثل تلك الروابط العامة التي يجتمع الناس حولها في عالم اليوم بسبب وحدة العرق أو الأرض أو اللسان. وفقدت بذلك الرابط الأساسي الذي كان أساس ميلادها الأول درجة إعلان بعض المفكرين المسلمين المحدثين أن "الأمة" بدلالاتها الإسلامية الأصيلة تعد اليوم بمثابة تلك الفريضة الضائعة"[48] التي ينبغي العمل على إعادة بناء كيانها، وبيان أهمية ما يمثله الاجتماع في إطارها بالنسبة للمسلمين لمواجهة تلك التحديات التي تواجههم.

ويطرح د. عبد الوهاب المسيري حلا للخروج من مأزق نقل المفاهيم بقوله: إن القاعدة الأساسية ألا نترجم على الإطلاق، وإنما ننظر للظاهرة ذاتها سواء في بلادهم أم بلادنا، فندرس المصطلح الغربي في سياقه الأصلي ونعرف مدلولاته، ثم نحاول توليد مصطلحات من داخل المعجم العربي... لا يكون ترجمة حرفية ونقلاً بدون اجتهاد، ولكننا سنولد مصطلحاً يصف ما نراه نحن، وتفسير من وجهة نظرنا نحن، وهذا لا يعني انغلاقاً عن الذات، وإنما يعني انفتاحاً حقيقيًا على الآخر بدلاً من الخضوع له تماماً أو رفضه تماماً.

ويدعو إلى تأسيس نماذج معرفية بديلة للنماذج السائدة و"إثرائها، وتوسيع حدودها والامتزاج بها، حيث تتحول من نماذج كابحة للاجتهاد والتجديد إلى نماذج منتجة ومبدعة وعالمية وإنسانية، تستند إلى معرفة وثيقة

[48] - وقال بهذا الدكتور عبد الصبور شاهين: في كتابه: "**الأمة: الفريضة الضائعة**"، دار الاعتصام، 1416 هـ/1996م، ط.1

بكل التشكيلات الفكرية والمعرفية والحضارية، وبكل خصوصياتها وتعرجاتها ونتوءاتها، وتحاول أن تصل إلى أعلى درجات التجريد وأدق درجات التخصيص".[49]

ويتفق المسيري في هذا مع كثير من المفكرين واللغويين اللذين يؤكدون على أن المنهج السليم لتحديد دلالات أي مفهوم هو الرجوع إلى جذور المفهوم في لغته وتتبع دلالاته في مصادرها الأساسية، ومحاولة تجريد هذه الدلالات ثم إعادة دمجها في الواقع المعاصر بعد خلعها من ظلال الزمان والمكان واختلاف الخبرات والوقائع. وذلك دون الافتئات على ماهية المفهوم وجوهره، بل صقل الجوهر وتنقيته من الشوائب سعيا للوصول إلى المعنى الحقيقي المجرد من خصوصيات الاستعمال التاريخي.

ويبقى أن أهم الإشكالات التي واجهها الفكر الاسلامي الحديث لبناء تصور حضاري للمسألة المصطلحية، يرتكز على دعائم ثلاث: الفهم الصحيح الشامل، التقويم الصحيح، التوظيف الصحيح؛

"البحث عن مصطلح الماضي؛ بهدف الفهم الصحيح، التقويم الصحيح، التوظيف الحديث، ودراسة مصطلح الحاضر بهدف: "الاستيعاب العميق، فالتواصل الدقيق، فالتوجه إلى أقوم طريق"، واستشراف آفاق مصطلح المستقبل بهدف "الإبداع العلمي الرصين، والاستقلال لمفهومي المكين، والتفوق الحضاري المبين"،[50] من خلال تعريف الذات الحضارية المستعملة للمصطلح: ماذا كانت؟ وما هي الآن؟ وما ينبغي أن تكون عليه في المستقبل؟).

ويمكن القول إجمالا إنه لما لم يكن من مهام هذا العرض رصد شامل لرؤية هؤلاء النماذج من المفكرين، ولا تناول أعمالهم بالتفصيل، عرضا ونقدا وملاحظة إلا بما يخدم التقاط عناصر موضوعنا المتعلق بجوانب التفكير الناقد في تفاعله مع أسسه المرجعية سلبا أو إيجابا. فإن كل هؤلاء الأعلام وغيرهم، ممن لم يتسن لنا تقديم أعمالهم ولا الحديث عن مشاريعهم، وتقييم جهودهم، هؤلاء كان لهم أثر كبير على بلورة التفكير النقدي حول قضايا المناهج والمفاهيم عموما، وعملت كتاباتهم المختلفة على بلورة رؤية نقدية مهمة، كان من مقاصدها الرئيسة تحرير كثير من تلك المناهج والمفاهيم من حمولاتها الإيديولوجية الكامنة فيها، وانطلقت من اعتبار المعرفة الحقة هي تلك التي تؤمن بوحدة الحقيقة، ووحدة الحياة، وتكامل الوحي والعقل، والشمولية في المنهج والوسائل، ووحدة الجوهر الإنساني؛ وقدمت بذلك رصيدا معرفيا ومنهجيا مهما في مجال الفكر العربي والإسلامي والإنساني عامة.

---

[49]- إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد: فقه التحيز، عبد الوهاب المسيري، سلسلة المنهجية الإسلامية 9، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، ط3، 1418هـ/1998م، ص 23؛ بتصرف.

[50]- الشاهد البوشيخي، **"نحو تصور حضاري للمسألة المصطلحية"**، فاس: مطبعة أنفو- برانت، 2002، ص ص 8–11

وختاما:

يتجلى مما تم بسطه وتحليله أهمية تشجيع التفكير الناقد، باعتباره قوة وطاقة إنسانية جديرة بالرعاية الحقة، تمكننا من التمييز بين الأشياء والأسماء والمسميات والرجال والمفاهيم والمواقف المختلفة، ويمثل اليوم ضرورة ثقافية وحضارية للجواب عن كثير من تحديات اللحظة التي تحياها الأمة.

ويعتقد بعض الناس أن المقصود من النقد عبارات سلبية، وهذا مفهوم خاطئ؛ فالتفكير الناقد هو النظر إلى الجوانب الإيجابية والسلبية معا، في حين يقتصر التفكير المنغلق على الذات أو المتعصب لها على النظر إلى آراء الآخرين ومواقفهم نظرة سلبية فقط ؛ تكتفي بوصف الأفكار، ونعت أصحابها أو اتهامهم بصنوف من الاتهامات التي تتحول إلى شعارات يكررها الناس من دون أن يملكوا القدرة على البرهنة عليها أو النفاذ إلى أعماقها، ويكتفون في ذلك بتقليد رؤسائهم وكبرائهم. على الرغم من أن نقد التقليد وذم التعصب قد ورد في أسسنا المرجعية الثابتة، وفي نصوص علماء كبار رفعوا لواء الاجتهاد ونبذوا أصفاد التقليد وانتقدوا التحجر الفكري. وأكدوا أن التقليد الساذج والتعصب، إنما يكرسان الانغلاق وإلغاء الآخر ويسببان في الضمور والرتابة الفكرية؛ وكل هذه الخصائص أشد خطرا وضرراً على الأمم من ممارسة حق النقد البناء.

ومن سمات التفكير الناقد، أنه بالإضافة إلى ما ذكرنا سابقا، تفكير منفتح، يعترف بحدود المعرفة ونسبيتها، ويعترف بتنوع المدارك الثقافية واختلافها، ويعتبر الخلاف المعرفي مولدا للثراء والإبداع. ولولا هذه الرؤية النقدية التي سادت أمتنا في عصورها الذهبية، ما تحقق لها ذلك التنوع الفقهي والتفسيري والمعرفي الذي دفع العلماء إلى التنافس في ارتقاء درجات الاجتهاد وولادة مدارس اجتهادية في كل فن من الفنون العلمية الكثيرة التي استجابت للتساؤلات العديدة التي ما فتئت تلهم همم العلماء وقادتها، وتدفعهم إلى البحث والكشف عن الأجوبة المناسبة لها، وبهذا تعددت المدارس المذهبية وتنوعت الخيارات الفكرية والاستراتيجية في مسيرة الأمة طيلة مراحل قوتها وتألقها الحضاري؛ ولما انطفأ سراج الفكر وبدأت أصوات طبول التقليد تصم الأذان، وتزعج الالباب، وأسدل التقليد ظلامه وانغلق الأفق الفكري والمعرفي بانغلاق أبوابه: السؤال والنقد، اضطربت الرؤية وانتكست مسيرة الأمة.

ومن البديهي، أن القهر والقسر والإلغاء أشد خطراً وضرراً على الأمم والأوطان من ممارسة حق الاختلاف والاعتراف بالتنوع المعرفي الثقافي، واعتباره الوليد الطبيعي لقيمة الاجتهاد وسبيل تعدد الخيارات الفكرية والاستراتيجية في مسيرة الأمة. وإذا كانت بعض المنظومات المعرفية الشمولية تعمل على ذم التفكير النقدي والاختلاف في مجال الحياة عامة، وفي المجال الفكري والمعرفي خاصة وتقصي المخالفين، وتحذر من كل ما يصدر عنهم، فإنها بذلك لا تؤدي إلا إلى مزيد من التقهقر. إذ لا يمكنها إنهاء الأسباب الطبيعية للاختلاف مهما فعلت، ولن تستطيع إزالة أسبابها مطلقا، وإنما تعمل على إخفائها أو تغيير مسارها؛ فتتحول إلى طاقات

كامنة ومكبوتة، وحين تخرج للعلن تتحول إلى نزاعات وسلوكات مرضية يصعب التحكم في نتائجها. حينئذ بذل أن يكون الاختلاف سببا من أسباب الثراء والتنوع الفكري والمعرفي يتحول إلى سبب من أسباب التقاتل والصراع والإقصاء المتبادل. إذ لا يمكن لقوة التسلط والغلبة والقهر مهما بلغت جبروتها أن تنفي الحقوق التي بها تكتمل حرية الإنسان وكرامته، ولعل الحرية الفكرية تأتي في مقدمتها. ولعل المتأمل في كثير مما يقع اليوم يرى أن الواقع الجديد الذي تشهده بعض المجتمعات العربية يكشف عن مدى قصور وهشاشة التفكير النقدي والمنهجي في أغلب خطاباتنا الإسلامية والعلمانية المعاصرة، مما دفع ببعضها إلى الدعوة للقيام بمراجعات نقدية فكرية لتواكب منظومات المفاهيم عندها مع يقع على الأرض، بما في ذلك الخطاب الإسلامي السلفي في أحد روافده الذي يقدم نفسه بالمظهر المستنير الذي نزل بدوره إلى الشارع، ليبني بدوره المجتمع الديمقراطي الذي كان يطعن في كثير من أسسه الثقافية والفلسفية.

ولا سبيل إذن، لتجديد وبناء فكر إسلامي أصيل ومعاصر، إنساني وعالمي، علمي فاعل ومنتج دون إعمال التفكير النقدي للتحرر من كثير من الآفات، وأوجه الخلل المحيطة بأشكال وأنماط تفكيرنا، ومن دون هذا يصعب علينا تقديم ثقافة ومعرفة قادرة على الانخراط بنا في القضايا الكونية والإنسانية المشتركة من موقع المسؤولية الشرعية والتاريخية والإنسانية.

والتفكير النقدي يقدر ما هو مطلوب ومرغوب فيه، يحتاج إلى كفاءات ومهارات ومؤهلات، وإلا أصبح أداة للهدم، ووسيلة للفوضى والانفلات من كل الضوابط، وإن آفاقه بقدر ما هي واسعة وواعدة تفرض على روادها ارتياد آفاق معرفية واسعة وتحصيل مزيد من المهارات المنهجية والتمرس المنهجي واليقظة الفكرية، وإلا أفسدوا من حيث يريدون الإصلاح.

MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm
Mominoun

الرباط – المملكة المغربية
ص.ب : 10569
هـاتـف: 00212537779954
فاكس: 00212537778827
info@mominoun.com
www.mominoun.com